صموئيل كوهين
مارك جنيست

ترجمة
اللواء محمد سميح السيد

قتلة النيوترون

JABI 88

دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

قنبلة النيوترون

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٨٨

"صموئيل كوهين" و"مارك جنيست"

قنبلة النيوترون

ترجمة: اللواء محمد سميح السيّد

قنبلة النيوترون/تأليف صموئيل كوهين، مارك جنيست؛ ترجمة محمد سميح السيد
.ــ ط.١ .ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨ .ــ ١٧٦ص.؛ ٢٤ سم.

١ــ ٣٥٥٫٤٧ كوهـ ق ٢ــ ٣٥٨ كوهـ ق
٣ــ العنوان ٤ــ جنيست ٥ــ السيد

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ٤٢٩/٤/١٩٨٨

رقم الاصدار ٣٣٧

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

مقدّمة المُترجِم

١ ـ لمحة عن المؤلفين :

١ ـ **صموئيل كوهين** : عالم أمريكي يهودي ، يعتبر الأب الاول للقنبلة النيوترونية . كان يدعو دائما لوضع اختراعه هذا موضع التطبيق بشكل قذيفة تكتيكية من جهة ، وعلى شكل حاجز نيوتروني يقف في وجه أي معتد من جهة ثانية . لذلك أطلق عليه الكثيرون لقب جزار ومجرم حرب لأن سلاحه يستهدف الانسان قبل أي شيء آخر .

٢ ـ **مارك جنيست** : ضابط فرنسي برتبة عقيد ، من كبار المتحمسين والدعاة للسلاح النووي التكتيكي . كان يندد دائما بخطورة استراتيجية « الرد المرن » على أوروبا وأمنها ، كما يعتبر من قبل الامريكيين متطرفا في آرائه ، ومن قبل بعض الاوساط الفرنسية كعميل للمخابرات المركزية الامريكية .

٢ ـ هدف الكتاب وخلاصته :

ـ يهدف المؤلفان ، على حد زعمهما ، الى منع الحروب عن طريق قنبلة النيوترون التي تعتبر السلاح الامثل للمدافع لانها تحبط أي هجوم . فالردع النووي الحالي ، القائم أساسا على السلاح النووي الاستراتيجي ، يعتبر ناجحا بالنسبة للدولتين العظميين فقط . أما في أوروبا ، فان استراتيجية « الرد المرن » قد تجعل من أوروبا مسرح عمليات محتمل ، وخاصة بعد التسهيلات والاغراءات التي قدمها السلاح النووي التكتيكي . فالحل الامثل اذن والردع المثالي يكمنان في قنبلة النيوترون التي يجب

أن تستخدم فور بدء الاشتباكات ، بل أن تعزز بما يسمى « حقول الالغام النيوترونية » التي يمكن زرعها في أوقات السلم .

- يبدأ الكتاب ، بعد هذه المقدمة ، باستعراض لتاريخ قنبلة النيوترون (نشأتها - تأثيراتها - المشاكل التي أثارتها والعقبات التي صادفتها أمام الادارة الامريكية ولعبة المصالح وسباق النفوذ بين القوات البرية والبحرية والجوية علاوة على التنافس المعهود بين أعضاء مجلس الشيوخ) .

- فكرة قنبلة النيوترون قديمة في ذهن المؤلف ، اذ تعود الى مطلع الخمسينات ، الا أنها لم تأخذ طريقها الى الظهور نظرا للاسباب الواردة آنفا ، علاوة على وقف التجارب النووية في عام ١٩٥٨ .

- في عام ١٩٧٥ ، عندما اشتكت قيادة حلف الاطلسي من قدم مخزونها من القنابل النووية التكتيكية ، وظهرت فكرة تدمير الصواريخ العابرة للقارات ، ظهرت على المسرح من جديد فكرة القنبلة النيوترونية لتخدم الهدفين معا : الحلول محل القنابل القديمة وتدمير الصواريخ النووية في الجو بواسطة « الاشعاع المعزز » ، فبرزت فكرة صنع الصاروخ « لانس » الذي يعتبر تطبيقا لمبدأ قنبلة النيوترون .

عندئذ قامت الصحافة بالهجوم على هذا السلاح الجديد ، الذي أعتبر اجراميا كالاسلحة الكيميائية والجرثومية ، علاوة على ما يمكن أن يشكله من اغراء باستخدامه دون خوف من نشوب حرب نووية شاملة . ومن بالجدير بالذكر هنا أن هذه الحملة قد جاءت في عهد الرئيس « فورد » عام ١٩٧٦ . كذلك نقلت وسائل الاعلام فكرة جديدة مفادها أن الادارة الامريكية تنوي الموافقة على ادخال مبدأ « الاشعاع المركز » على قنابل المدفعية من عيار ٢٠٣ مم .

- عند انتخاب الرئيس « كارتر » ، أعلن البيت الابيض أن موضوع قنبلة النيوترون لم يتقرر نهائيا بعد ، ولكنه سيدرس مستقبلا . بهذا أراد الرئيس الجديد ترك باب الخيار مفتوحا أمامه . في الحقيقة ، كان الرئيس « كارتر » ميالا للسلاح الجديد ، ولكن اعتراض بعض الدول الاوروبية ،

وخاصة المانيا الغربية ، التي خشيت أن يشجع هذا السلاح على الاستخدام النووي فيصبح السلاح التكتيكي سلاحا للقتال بدلا من كونه وسيلة للردع كالاسلحة الاستراتيجية . أضف الى ذلك تهديد السوفييت بأنهم مستعدون لصنع هذه القنبلة أيضا . كل ذلك دفع الرئيس كارتر الى تأجيل قراره حتى لا يضر بمفاوضات « سالت » . وفي عام ١٩٧٨ ، أعلن عن قراره حول اعداد العدة اللازمة لصنع الصاروخ « لانس » والقذيفة من عيار ٢٠٣ مم ، على أن يؤجل التركيب الى وقت لاحق ...

- بعد ذلك يفرد المؤلفان بحثا وافيا للحديث عن مزايا هذا السلاح الجديد والنواحي الفنية فيه ، لكي ينتقلا للحديث عن قنبلة النيوترون ودورها في الدفاع عن اوروبا ، كما يستعرضان بشكل سريع تطور ميزان القوى العسكرية في العالم خلال السنوات العشرين الفائتة مع مقارنة بين المفاهيم الاستراتيجية للدولتين العظميين .

- يتضمن الكتاب أيضا فكرة جديدة أثارت الكثير من الجدل في حينه ، وهي اقتراح يتعلق بزرع « **ألغام نيوترونية** » على حدود اوروبا الغربية بهدف جعل المعتدي نفسه البادىء باطلاق السلاح النووي .

- من كل ما تقدم ، يصل المؤلفان الى الخلاصة التالية :

ان استراتيجية « الرد المرن » مولود غير مرغوب فيه ، يجب أن يدفن بأسرع ما يمكن ، وما هذه الكتل الهائلة من الدبابات والعتاد سوى توابيت متحركة ازاء القنبلة النيوترونية التي يجب أن تعتبر أنجع وسيلة للردع لانها تجعل الهجوم مستحيلا تماما . أما حلف الاطلسي ، فهو لا يتمتع حتى الآن بالتعداد اللازم **للدفاع الكلاسيكي** ولا بالعقيدة المناسبة **للدفاع النووي** .

صحيح أن هذه القفزة النوعية الهائلة في الاستراتيجية والتكتيك تبعث الخوف في النفوس ، ولكن التاريخ أثبت أن النصر كان دائما حليف أولئك الذين يعرفون كيف يوفقون بين عقيدة الماضي وتكنولوجيا الحاضر وآفاق المستقبل ...

ان الذي يلفت النظر في هذا الكتاب هو أن المؤلفين يكملان بعضهما : فالاول عالم كبير ابتكر سلاحا جديدا رهيبا يريد الترويج له عن طريق الالتفاف على الرأي العام ، والثاني ضابط مؤهل ، ذو خبرة قتالية وثقافة عسكرية عالية ، يساهم في الترويج للسلاح نفسه بوضع مفاهيم الاستخدام القتالي وأسسه ومبادئـــه .

أغلب الظن أن كثيراً من الأفكار الواردة في هذا الكتاب ستأخذ طريقها إلى النور ، وبخاصة إذا خيَّم الضباب من جديد على سياسة الوفاق بين العملاقين .

ولا شك في أن من شأن هذا السلاح الجديد الرهيب ، الذي كثر الحديث عنه في الآونة الأخيرة ، أن يحدث تغييراً جذرياً في المفاهيم الاستراتيجية والتكتيكية .

المترجـــم

* * *

تمهيد

أثبتت الاسابيع الاولى من عام ١٩٨٠ للعالم الغربي أن « الوفاق » كان وسيلة سجل بواسطتها السوفييت نقاطا كثيرة على عالم « حر » تتنازعه أفكار مختلفة وآراء متضاربة وتيارات متصارعة .

الا أن الغربيين أخذوا يفتحون أعينهم أخيرا بعد التدخلات الالمانية الشرقية والكوبية في أفريقيا وعدم الاستقرار في ايران بعد الثورة الاسلامية والغزو السوفييتي لافغانستان . لذلك أعلن الرئيس الامريكي « جيمي كارتر » انه « عرف عن الروس خلال أسبوع واحد ما لم يعرفه عنهم طوال سنتين ... »، وانه مستعد للرد بالقوة على أية محاولة سوفييتية للتدخل في منطقة الخليج الفارسي (العربي) الحيوية .

كذلك أثبتت عمليات الاستفتاء المختلفة أن الامريكيين قد أصبحوا يخافون من نشوب الحرب . وهكذا حل القلق دون أية مرحلة انتقالية محل « أوهام الوفاق » ، وخاصة بعد أن لمس الرأي العام الجهد العسكري الهائل الذي بذله الاتحاد السوفييتي على الصعيدين التقليدي والنووي في البر والبحر والجو .

من المعروف أن الاتحاد السوفييتي ومن يدورون في فلكه يمتلكون الآن في أوروبا وسائط تقليدية (كلاسيكية) تفوق بثلاث مرات كل ما تستطيع أن تقدمه مجتمعة كافة بلدان حلف الاطلسي . أما قدرة الغرب على الردع فتعتمد بالدرجة الاولى على السلاح الاستراتيجي للولايات المتحدة ، في الوقت الذي يدرك الجميع صعوبة لجوء الدولتين العظميين الى التراشق النووي الاستراتيجي الذي سيؤدي حتما الى تدمير الطرفين . لذلك من المرجح أن تدور المعركة على الارض الاوروبية ، حيث لن يتردد العملاقان في اللجوء الى الاسلحة النووية التكتيكية .

أضف الى ذلـك أن اعـداد الصواريخ السوفييتية (SS-20) والامريكية (بيرشنغ) قد جاء ليزيد من قلق الاوروبيين نظرا لسهولة اللجوء الى الصواريخ التكتيكية المتوسطة المدى بدلا من السلاح الاستراتيجي الرهيب . في جميع الاحوال ، سيكون أي صراع من هذا النوع مميتا بالنسبة للقارة الاوروبية بسبب كثافة سكانها ...

في هذا الاطار الاستراتيجي ، أثير الجدل منذ ثلاث سنوات حول قنبلـة النيوترون ، هذا السلاح الجديد القديم الذي أنجزه المؤلف « صموئيل كوهين » . في الحقيقة ، يعتبر هذا السلاح موجودا منذ عشرين عاما ، حيث درسنه ادارة الرئيس « أيزنهاور » وأدركت مدى أهميته ونجاعته للدفاع عن اوروبا الغربية . الا أن السيد « روبرت مكنامارا » قام في مطلع الستينات بقلب الامور رأسا على عقب بعقيدته المشهورة عن « الرد المرن » ، والتي ترفض مثل هذا السلاح بطبيعة الحال . فالرد المرن لا يفكر في اللجوء الى الذرة الا في نهاية المطاف ، أي بعد فشل المعركة الكلاسيكية . أما السلاح النووي التكتيكي فكان يلعب دور المروحة وليس دور المدفعية القادرة على سحق الهجوم المعادي في أرضه فور بدء القتال .

منذ عام ١٩٦١ ، كان المؤلف الثاني لهذا الكتاب ، وهو العقيد الفرنسي « مارك جنيست » ، يدعو الى دفاع نووي في الامام ، يستطيع تدمير المهاجم فورا مهما كانت الوسائط التي يستخدمها . لذلـك كانت قنبلة النيوترون الوسيلة الاكثر نجاعة لاقامة سد لا يمكن للمدرعات السوفييتية اختراقه .

تكمن الخاصـة الاساسية لقنبلـة النيوترون في كون تأثيرات الضغط والحرارة محدودة ، بينما نجد الاشعاع النيوتروني أكبر بكثير مما هو عليه في السلاح النووي الكلاسيكي .

لذلك لا يمكن لأي درع معروف حاليا أن يوقف المد المميت للنيوترونات التي تبطل ، خلال دقائق معدودات ، الطواقم التي لم تعد صفائح الفـولاذ بقادرة على حمايتها .

أما المدافعون ، الملتجئون في الخنادق ، فيتمتعون على العكس بحمايـة

شبه تامة ضد التأثيرات النيوترونية . قد يبدو هذا غير قابل للتصديق ، ولكن الملاجىء البسيطة الارضيـــة تحمي أكثر من الـــدرع . وهكذا يميز السلاح النيوتروني المدافع ويصعق المهاجم الذي يجازف بشن هجوم بري .

من هذا يمكن القول أن السكان المدنيين ، الموجودين في المناطق القريبة من مسرح العمليات، يمكن أن يتمتعوا بالحماية التامة اذا وضعوا داخل الملاجىء . أضف الى ذلك أن التأثيرات المحدودة للعوامل الحرورية والميكانيكية للانفجارات قد أصبحت قادرة من الآن فصاعدا على تجنيب الدولة المعرضة للهجـــوم الدمار المـــادي والبشري الذي كان ينجـــم عن استخدام القنابل النوويـــة التكتيكيـــة .

رغم بساطته التقنية ، استبعد هذا السلاح من الخيارات الاستراتيجية في عهد الرئيس كينيدي ، كما قامت ضده حملة سياسية كبيرة نشرتها وسائط الاعلام ، وخاصة « الواشنطن بوست » التي كتبت تقول : « من المؤكد أن التأثيرات الجانبيـــة المحدودة لهـــذا السلاح ستفري العسكريين باستخدامه بسهولة أكبر ... » .

في عام ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ ، عندما تم رفض المشروع المتعلق بصناعة القاذفة (ب ١) ، أعلن الاتحاد السوفييتي أنه يعتبر ادخال السلاح النيوتروني في الترسانة الامريكية تعديا على روح الانفراج وسياسة الوفاق .

كذلك هبت مختلف الاحزاب الشيوعية بدورها لتهاجم « هذا السلاح الرأسمالي » الذي « يقتل الرجال ويصون الممتلكات » . كما وقع في الفخ بعض الســـذج من الصحفيين الذين أخذوا يتباكون على المبادىء الانسانية وروح الفروسية التي تذبحها وحشية هذا السلاح انيوتروني الرهيب . وهكذا رأينا وزير الدفاع الفرنسي يخالف تصريحات رئيس أركانه الجنرال « ميري » (Mery) فيعلن أنه لا ضرورة للتفكير بمثل هذا السلاح في الوقت الحاضر .

رغـم كل ذلك ، تابـع العقيد « مارك جنيست » حملتــه في الصحافة العسكرية الفرنسية والامريكية من أجل دفاع نووي في الامام ، يعتمد أساسا

على السلاح النيوتروني ، حتى بدأت حججه ومبرراته تلاقي آذانا صاغية لدى الكثيرين من الصحفيين والسياسيين والعسكريين .

نحن لا نريد هنا أن نقلل من أهمية القوى النووية الاستراتيجية ، ولكننا نرى من الانسب اكمالها بترسانة نووية مضادة للقوات ، تستند الى السلاح النيوتروني القادر على سحق أي عدوان دون تعريض أرض المدافع لخسائر فادحة في الارواح والممتلكات .

بهذا تصبح كل محاولة هجومية برية شبه مستحيلة دون التلويح بالدمار النووي الشامل . ان هـذا الموضوع يعني الاوروبيين بالدرجة الاولى لأنهم معرضون لأن يكونوا الضحية الاولى لأية مجابهة بين الدولتين العظميين . لذلك فان وضع سد نيوتروني على الحدود الشرقية لاوروبا الغربية من شأنه احباط أية نوايا عدوانية عليها وضمان استقلالها وربما وحدتها في المستقبل القريب .

فيليب كونراد

* * *

المقـدّمَة

ليس بالسهل تقـديم كتاب صديق عزيز ، ولكن تقـديم عمل جماعي لصديقين عزيزين أشاركهما أفكارهما يعتبر من الامور المحرجة والحساسة . من المعروف أن هدف كل مقدمة هو تأييد ما يحتويه الكتاب ، وهنا قد يظهر مقدم العمل وكأنه كاهن يبشر لمصلحة كنيسته أو رعيته ، أو كأن المؤلف قد استغل صداقته وضعفه .

الا أنني أحمد الله لأنني لا أشعر هنا بأية عقدة أو مركب نقص ، خاصة وأنني عملت مع المؤلفين والجنرال الراحل « أندريه بوفر » في مركز واحد للدراسات الاستراتيجية ، حيث تعودنا على البحث العلمي الموضوعي البعيد عن النظرة الذاتية وتبادل المدح والاعجاب والتفاخر ... وقد توصلنا أخيرا ، رغم اختلاف أفكارنا ومشاربنا وميولنا ، الى التخاطب على موجة واحدة هي الكفاح ضد الحرب . الا أن كلاً منا قد خسر معركة حتى الآن :

فالعقيد « مارك جنيست » ، الذي كان يسعى جاهدا منذ سنوات لكي يبرهن على عدم تجانس مفهوم الردع المسمى « بالرد المتدرج » أو « ألمرن » ، قد صنف من قبل الامريكيين في عداد الدعاة للحرب ، كما اعتبره الفرنسيون عميلا للمخابرات المركزية الامريكية .

أما « صموئيل كوهين » ، الذي أراد منع الحرب عن طريق التطبيق المزدوج لاختراعه بشكل قذيفة نيوترونية تكتيكية من جهة ، وسد نيوتروني من جهة ثانية ، فقد لقب بمجرم حرب .

وأما أنا ، فقد اعتبرتني صحيفة « البرافدا » السوفييتية من دعـاة الحرب الباردة ...

لذلك لم يبق أمامنا سوى أن نعمل معا لكسب الحرب ضد الحرب ...

يشرح هذا الكتاب بشيء من الطرافة بعض مظاهر المعارك التي خسرها صديقاي ليقدم لنا بعد ذلك جوابا على أخطر سؤال يقض مضاجع البشرية في عصرنا هذا : وهو كيف يمكن افشال الحرب . ولا بد من التنويه هنا بأن هذا الجواب يختلف تماما عن الاجوبة التي اعتدنا سماعها من معظم المفكرين العسكريين الغربيين الذين بنوا حججهم على أساسين قابلين للنقاش وهما : أن السوفييت يفكرون بنفس أسلوبهم من جهة ، وأن الاتحاد السوفييتي قد ارتدع في الماضي بفضل المفاهيم المتتالية لحلف شمال الاطلسي . ولكن لسوء الحظ ، لا تفكر موسكو بنفس أسلوب العواصم الغربية ، كما يمكن القول أن الاتحاد السوفييتي لم « يرتدع » حتى الآن ، لأن الاستراتيجية الشاملة للكريملن لا تفكر باللجوء الى القوة الا عند الضرورة القصوى التي لم تظهر أية حاجة لاستخدامها في مجابهة كبرى حتى الآن .

أضف الى ذلك أننا دخلنا ، منذ أزمة الطاقة وتوقيع المعاهدة الصينية ـ اليابانية سنة ١٩٧٨ ، في مرحلة جديدة خطرة وقابلة للانفجار . ومما يزيد في خطورتها احتمال اعتقاد السوفييت بأنهم محاصرون ، مما قد يدفعهم لاعادة النظر في استراتيجيتهم الشاملة والتفكير في استخدام القوة .

لمواجهة هذا الاحتمال الرهيب ، يقدم المؤلفان لنا هنا ردعا غير قابل للفشل لانه يجعل هجوم المعتدي ضربا من المستحيل . ان الرد هنا لا يستهدف المدن والسكان ، بل القوات المسلحة المعتدية .

أما السد النيوتروني المقترح في هذا الكتاب ، فلا شك في أنه أكثر فعالية بكثير من كافة الحلول العرجاء التي تترك للخصم المبادهة الاولية عن طريق التلويح بتهديدات نظرية في مرحلة يمكن أن تكون حاسمة .

« ميشيل غارديه »

رئيس مركز الدراسات للاستراتيجية الشاملة

الفصل الأول

محاكمة وقائية في بلاط « ريوم » ؟

من المعروف أن خسارة معركة لا يعني خسارة الحرب ، ولكن الحروب لا تكسب بالمعارك الخاسرة ... كذلك من المعروف أن المعركة تكسب قبل القتال والحرب منذ فترة السلم ... ومن البديهي أيضا أن نجاح كل معركة يتوقف على نسبة القوى والترتيب القتالي والعقيدة وشجاعة المقاتلين ومستوى تدريبهم . بل يمكن القول أن تحقيق هذه الشروط من شأنه الحيلولة دون وقوع الحرب .

كان هذا صحيحا في الماضي ، ولا زال صحيحا اليوم رغم الذرة واللايزر والنيوترون ...

لذلك يمكننا التأكيد على أن المتهمين في بلاط « ريوم » ، بعد كارثة حزيران من عام ١٩٤٠ ، لم يكونوا الجنرالات المهزومين وحدهم ، بل كذلك المسؤولين عن الاعداد للحرب الذين حكموا سلفا على جيوش الجمهورية الفرنسية بالهزيمة .

لقد دافع المتهمون المدنيون والسياسيون عن انفسهم مدّعين بأنهم كانوا يصوتون دائما بالموافقة على الميزانيات التي يطلبها العسكريون ، وهذا صحيح ... أما العسكريون فقد أفادوا بأن الدبلوماسية الفرنسية كانت تريد تقديم العون العسكري لحلفاء بعيدين عنها (مثل بولونيا وتشيكوسلوفاكيا) ، الامر الذي كان يستلزم استراتيجية هجومية ، بينما كانت السياسة العسكرية المقررة من قبل الحكومة تفرض العكس تماما ، خلف خط « ماجينو » الحصين لذلك كان العسكريون على حق في هذه النقطة بالذات على الاقل .

وأخـيرا ، نصل الى رئيس الدولـة الفرنسية الذي أمر بعقد محكمة « ريوم » لمعاقبة المسؤولين ، فنطرح السؤال التالي : ألم يكن المارشال « بيتان » نفسه ، بطل معركة « ڤردان » الشهير ، هو الذي دعم بسلطته ونفوذه تلك المفاهيم الدفاعية البالية التي ما لبثت أن انهارت كقصر من الورق أمام دبابات « غوردیان » ؟...

لذلك نخلص الى القول بأن الجميع كانوا مسؤولين بشكل أو بآخر عن تلك الهزيمة النكراء التي لم يعرف لها تاريخ فرنسا مثيلا ، وهذا ما أدى الى توقف محاكمات « ريوم » دون أية نتيجة تذكر . عندئذ ، وبعد فوات الاوان ، أدرك الجميع قيمة ذلك العقيد المسمى « ديغول » ، كما لمسوا بعد نظره وصحة مفاهيمه التي ظل ينادي بها وكأنه يصرخ وحده في واد سحيق ...

أما اليوم ، وبعد مرور أربعين عاما ونيِّف ، فيمكن عقد محاكمة جديدة وقائية في « ريوم » : فالجميع يشعرون الآن بأنه لو نشبت حرب عالمية ثالثة (لا سمح الله) ، فستكون خاسرة بالنسبة لحلف الاطلسي ، وخاصة في أوروبا على الاقل ، ولنفس الاسباب التي أدت الى هزيمة حزيران عام ١٩٤٠ . الا أن الجميع يعزون أنفسهم بالاعتقاد السائد بأن الحرب قد أصبحت غير معقولة بسبب « الردع عن طريق الرعب النووي » الذي حل محل خط ماجينو ، الوسيلة الرادعة بالامس . صحيح أن هناك جهودا كثيرة تبذل لمنع الحرب ، ولكن ماذا يحدث لو وقعت الحرب رغم كافة الجهود المشكورة هذه ؟ طالما أننا نعرف عن يقين بأن الحرب هذه خاسرة سلفا ، ألا يمكن من الآن تقديم المسؤولين الى محاكمة وقائية ؟ ولكن المسؤولين هنا أيضا كثيرون ، والمسؤول الحقيقي الوحيد اليوم ، كما كان في حزيران من عام ١٩٤٠ ، هو النظام والعقيدة الاستراتيجية . فالقرار بطيء جدا في الديموقراطيات الغربية حيث البيروقراطية تظل سائدة في القطاعين المدني والعسكري على السواء ، مما يؤدي الى اختيار الطريق الانسب بعد فوات الاوان . هل نحتاج هنا الى التذكير بأنه لولا طغيان شخصية « هتلر » آنذاك لما خرجت الى النور أفكار كل من « فون مانشتاين » و « غودريان » في وجه البيروقراطية العسكرية الالمانية ؟ صحيح أنها كانت ستتقدم ببطء كأفكار « ديغول » في فرنسا ، ولكن الوقت في الظروف الحاسمة

كالسيف « اذا لم تقطعه قطعك » ... هل نحتاج الى التذكير بأن عقيدة شهر آب من عام ١٩١٤ ، أو الافراط في الهجوم ، كانت متخلفة أمام تقنية تلك الفترة ، مما أدى الى التضحية دون طائل بعشرات الالوف من الشبان الفرنسيين ذوي السراويل الحمراء في وجه الرشاشات الالمانية ؟ والجميع يعرفون الآن أن النصر الدامي في الحرب العالمية الاولى لم ينتزع الا بمعجزة حقيقية ، في معركة « المارن » ، حيث قامت هيئة الاركان بتغيير هذه العقيدة بما ينسجم مع تقنية العدو . وأخيرا ، هل هناك حاجة للتذكير مرة أخرى بأن « حرب الآليات » ، التي اتبعها بنجاح كبير في اوروبا كل من « غودريان » و « باتون » و « لوكلير » ، لم تكن تصلح للتطبيق في فيتنام ؟

ولا بد من التحذير هنا بأن أوروبا وفرنسا لم يعد باستطاعتهما الاعتماد على معجزات من نوع « المارن » أو « أوفر لورد » لانه لم يعد هناك مجال للاخطاء الاولية . فالمعركة الاولى قد تكون حاسمة في القارة الاوروبية على الاقل . كما أن العقيدة الموضوعة أثناء السلم لم تعد قابلة للتغيير أو التصحيح أثناء القتال ...

رغم ذلك ما زال التكتيك يلهث اليوم خلف « التكنيك » كما حدث في آب من عام ١٩١٤ في مواجهة **الرشاشات** ، وكما حدث في حزيران من عام ١٩٤٠ في مواجهة فرق الدبابات الالمانية . وما زال العلماء والتقنيون يتابعون أبحاثهم وأعمالهم دون أن يتدخل أحد في شؤونهم لعدم الكفاءة والاهلية ، بينما يجد الاستراتيجيون والتكتيكيون انفسهم أمام عقبات كثيرة عندما يكلفون بوضع أسس الاستخدام للاسلحة الجديدة . أوليس من الشائع القول « بأن الحرب أكثر جدية من أن تترك للعسكريين وحدهم » ؟... وقد أصبح هذا القول على درجة كبيرة من الخطورة الآن لأن الاستراتيجية العسكرية أصبحت المجال الوحيد الذي يمارس منه الهواة تأثيرا أكبر من المحترفين .

لذلك نلمس بطء الافكار فيما يتعلق بأسس استخدام الاسلحة الجديدة ، كما تزداد صعوبة كسب « سباق العقيدة » أي النصر العسكري الذي يحضر أثناء السلم . وغالبا ما نرى العسكريين يلتزمون الصمت والمجاملة خوفا من

عدم الترفيع ، خاصـــة وان صورة عام ١٩٣٦ مازالت ماثلة في أذهان الضباط الفرنسيين عندما أصدرت رئاسة الاركان تعميما منعت فيه الضباط من نشر المقالات المتعلقة بالمكننة أو « الأتمتة » نتيجة انزعاجها من مقالات العقيـد « شارل ديغول » حول نفس الموضوع .

وهكذا نلمس اليوم ، كما لمسنا في الماضي ، أن العسكريين ينتظرون الدفع العقائدي من هيئة الاركان ، بينما تنتظره هذه الأخيرة من السلطة السياسية منذ أن أطلق على السلاح الجديد لقب « سلاح سياسي » ... لذلك يمكن القول أن السياسة تشل التكتيك .

خلاصة القول هنا أن الذين يتكلمون لا يعرفون ... والذين يعرفون لا يتكلمون . وكمثال صارخ على هذا الجمود الخطير والمفارقة العجيبة ما سنراه في الفصول القادمة عن موضوع قنبلة النيوترون وتعثرها على أدراج البيروقراطية الامريكيـــة .

سيحاول هذا الكتاب تعريف الأداة وكيفية استخدامها معتمدا ، ليس على النظريات وحدها ، بل على الخبرة العملية الطويلة للمؤلفين ، سواء في ميادين القتال أو مراكز البحوث ومخابرها وحقول تجاربها . لذلك ليغفر لنـا القارىء استعراض ذكرياتنا الشخصية في ميدان التكتيك والتكنيك قبـل استخلاص الدروس والخروج بأفضل حل للردع الذي لا يفشل . نحن نعتقد جازمين أن الاستخدام الذي نقترحه لقنبلة النيوترون سيؤدي الى وضع ويلات الحروب في متحف كوابيس الماضي ...

مارك جنيست

٢ - كيف أصبحت خبيراً نووياً

كنت أنفر دائما من الساحل الشرقي للولايات المتحدة بسبب مناخه القاسي ، وخاصة مدينة بوسطن المعروفة ببردها القارس . هذه السمة ، المزعجة بالنسبة لكل كاليفورني ، ستكون ذات تأثير حاسم على ما تبقى من حياتي ، حيث ستدفعني الى تصور فكرة القنبلة النيوترونية .

في مطلع عام ١٩٤٣ ، كان العم سام في حالة حرب ضد النازيين واليابانيين منذ أكثر من عام . لذلك كانت القوات تجمع بسرعة وبأحجام كبيرة . وهكذا وجدت نفسي مدعوا للسوق مع أفراد قرعتي ، حيث التحقت بمعسكر « فور ماك أوثر » دون حماس زائد . منذ ذلك الحين ، أصبح مصير كل فرد يتعلق بعوامل عجيبة لا تتدخل فيها كثيرا ارادة الانسان ولا صفاته ومزاياه . واسمحوا لي هنا أن أضرب مثالا على ذلك صديقي « هرمان كاهن » ، الذي سيق معي في آن واحد ، والذي لم يتمكن من توظيف كافة امكانياته الهائلة في خدمة بلاده قبل النصر النهائي رغم حماسه الشديد للجندية . كان همه الاول هو اجتياز الفحص الطبي بنجاح رغم ضعف بصره الشديد وسماكة زجاج نظارتيه . لذلك حفظ عن ظهر قلب لوحة الاحرف التي يستخدمها الاطباء عادة في فحص النظر واعتبر « أهلا للخدمة المسلحة » . بعد ذلك اجتاز الاختبارات المعروفة التي يستطيع فيها الجيش تصنيف الافراد حسب درجة ذكائهم ، رغم أن الضابط المسؤول كان قد شرح للجميع صعوبة هذه الاختبارات وكيف لم يتمكن احد حتى الآن من الاجابة على كافة الاسئلة ضمن المهلة المحددة . كان الوقت المحدد للاختبار ٤٥ دقيقة ، ولكن صاحبنا أنهى الفحص خلال ثلاثين دقيقة وغادر قاعة الامتحان ، ثم ما لبث أن رجع ليقول للمراقب : اسمح لي أن أصحح الاجابة على سؤال واحد أخطأت فيه . فضحك المراقب واعتقد بأنه يمزح ،

فطرده من القاعة دون أي نقاش . رغم ذلك ضرب صاحبنا رقما قياسيا ، حيث حصل على علامة ١٤٩ علامة من أصل ١٥٠ . لذلك ألحق بسلاح الاشارة بناء على طلبه حيث أمضى خدمته الالزامية كأحسن الاختصاصيين في سلاحه ، ولكن عمله اقتصر على اصلاح الهواتف ووصل الاسلاك المقطوعة .

بعد ذلك بأربع سنوات ، حظيت بشرف ادخاله في مؤسسة (Rand Corporation) مع أن علامات دخوله الجيش كانت أعلى من علاماتي بكثير . بعد مرحلة التدريب العسكري الاولي ، تم ارسالي الى « معهد مساشوست للتكنولوجيا » في « كامبردج » قرب بوسطن ، حيث وجدت العديد من المجندين الطلاب في العلوم ، والذين تم جمعهم لكي يكملوا دراستهم كمهندسين قبل الحاقهم في مختلف المصالح الفنية كالمركبات والهندسة الحربية والاشارة وغيرها ...

في يوم قارس من شتاء عام ١٩٤٣ ، كان عندنا درس في قاعة الالكترونيات التي تقع في البناء المجاور . لذلك كان علي أن أختار بين حلين : أولهما الخروج في ذلك الزمهرير الثلجي لحضور الدرس أو التسلل خفية الى المهجع الدافىء ، وقد فضلت اختيار الحل الثاني دون تردد طويل . بعد ذلك بحوالي الساعة ، استيقظت على صوت الرقيب يناديني قائلا : اتبعني فورا . تبعته بقلب خافق وحلق جاف ، حيث أدخلني مكتبا يجلس فيه أحد الضباط الذي انهال علي بالعديد من الاسئلة حول عمري وعائلتي ودراستي دون أن يأتي على ذكر أي شيء حول العثور علي متلبسا بجريمة الهرب من الدرس . في نهاية المقابلة ، اكتفى بالقول : « انك تصلح ... » فهمت بعد ذلك أن صاحبنا كان موظفا في مشروع خاص يدعى « مشروع مانهاتن » ، وأنه كان يريد أن يقوم على عجل بانتقاء عدد من المجندين لصالح هذا المشروع ، فطلب من الرقيب أن يحضر له كل من ليس لديه دروس في تلك الساعة . وهكذا وقع الخيار علي صدفة كما وقع على بعض الزملاء الذين كانوا في المهاجع أو الندوة . بهذه المصادفة العجيبة وحدها ، وبسبب المناخ السيء لمنطقة بوسطن قدر لي أن أصبح عالما نوويا فيما بعد .

* * *

بعـد ذلك ببضعة أشـهر ، وصلت الى « لوس ألموس » ، في مكسيك الجديدة ، مما قربني من كليفورنيا . كانت « لوس ألموس » مدينة محظورة ينفذ فيها ، بمعزل عن العالم الخارجي ، مشروع أول قنبلة ذرية . كان الجنرال « غروڤس » ، من الجيش الامريكي ، يشرف على مجمل المشروع ، وخاصة ما يتعلق بالمحافظة على سريته التامة . من الخارج ، كانت « لوس ألموس » أشبه بمعسكر للاسرى منها بمختبر علمي متطور . كذلك لم يكن الداخل بأفضل من الخارج من حيث توفر أسباب الراحة والرفاهية ، الا أن معظم « المساجين » كانوا من العلماء البارزين جدا من أمثال « نيلز بوهر » ، « أنريكو فيرمي » ، « روبرت أوبنهايمر » ، « هانس بيت » ، الانكلبزي « شادويك » وغيرهم من المشاهير في ميادين الذرة ، الذين هربوا من أوروبا النازية لاجئين الى هـذا المعسكر . كان بعض هؤلاء مقيما بصورة دائمة ، بينما كان الآخرون يأتون للاستشارة من حين لآخر .

تم الحاقي آنذاك بطاقم تقييم القدرة المحتملة للقنبلة الذرية ، بأمرة « أوبنهايمر » وتحت اشراف الجنرال « غروڤز » . لقد كان العمل مشوقا للجميع ، والهدف عظيما ولكنه غير مضمون . في هذا الاطار ، كانت مهمة طاقمنا شاقة لانها تنحصر في تقييم القوة الانفجارية المحتملة للقنابل الاختبارية الاولى ، والتي كانت تتراوح بين حد أعلى يمكن حسابه على ضوء وزن المـادة المنشطرة (اذا تأثرت كافة ذرات البلوتونيوم أو الاورانيوم بالانشطار) ، وحد أدنى قد يكون صفرا اذا لم ينجح الانشطار . بين هذين الحدين ، كان جميع العلماء يغوصون في متاهة الفرضيات ، مما يؤدي بطبيعة الحال الى مناقشات لا تنتهي ورهانات حامية الوطيس حول من ستكون معطياته أقرب الى التجربة الحقيقية ... أما الشخص الوحيد الذي لم يضع هيبته العلمية في كفـة الميزان ، فهو الرئيس « أوبنهايمر » الذي كان يحمل على عاتقه مسؤولية نجاح هذا المشروع الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ . كان همه الرئيسي وشغله الشاغل أن تأتي قوة الانفجار فوق الصفر بكثير . الا أنه كان يتساءل دائما عما اذا كان هناك قانون خفي للطبيعة سيحول دون قيام البشر بخرق حرمة هذا التوازن الرائع للكون عن طريق شطر الذرة . لذلك رأيناه يتخذ الاجراءات

المناسبة لكي لا يؤدي الفشل التام للمشروع الى خسارة بعض الكيلو غرامات من المادة القابلة للانشطار والتي لم تكن تقدر بأي ثمن آنذاك ... وسنرى كيف تم ذلك فيما بعد . أما الآخرون فكانوا يبنون معظم تقديراتهم على معايير ذاتية بعض الشيء ، اما بسبب حماسهم الزائد لسلاح جديد سيضع حدا لهذه الحرب ، وربما لكافة الحروب في المستقبل ، أو بسبب تحفظهم الاخلاقي تجاه سلاح قادر على افناء الجنس البشري كله ...

كان « هانس بيت » أقل الزملاء تحمسا للسلاح الجديد وأكثرهم تحفظا ازاءه . لذلك توقع أننا لن نستطيع الخروج بأكثر من ٤ كيلو طن على أبعد تقدير . أما « ادوار تيلر » ، أشدنا تحمسا واندفاعا ، فقد توقع ٢٥ كيلو طن من التجربة الاولى . وأما طاقمنا نحن ، فقد توقع ١١ كيلو طن بعد أشهر طويلة من الحسابات المضنية .

في ٥ تموز من عام ١٩٤٥ ، وفي منطقة « الاماغوردو » ، بدد ظلمة الفجر اشعاع رهيب بدد معه كل مخاوف « أوبنهايمر » الذي أضاء وجهه بابتسامة عريضة وهو يشاهد تجربة الانفجار الذري الاول من الملجأ المجهز . وهكذا كسب « تيلر » الرهان وسجلت الاجهزة الرقم ٢٣ كيلو طن .

بعد هذا بحوالي شهر واحد ، أنفجرت القنبلة الاولى فوق هيروشيما بقوة ١٤ كيلو طن ، وكانت تعتمد على اليورانيوم ٢٣٥ . ثم ما لبثت القنبلة الثانية ، المعتمدة على البلوتونيوم ، أن انفجرت بدورها فوق جزيرة « ناكازاكي » ، مما أدى الى وضع نهاية فورية للحرب العالمية الثانية واستسلام اليابان . بعد القنبلة الثانية لم يبق في ترسانة الولايات المتحدة سوى قنبلة واحدة من النوع الذي ألقي على « ناغازاكي » .

وهكذا بدأ العصر الذري بعمل ارهابي مروع وفر أرواح مئات الآلاف من الامريكيين لأن اليابان وجدت فيه فرصة للاستسلام دون اراقة ماء الوجه ، خاصة وأنها كانت مصممة على الاستمرار في القتال رغم تأكدها من خسارة الحرب . وقد برهنت على ذلك في الجزر الخارجية مثل « ايووجيما » و « أوكيناوا » اللتين كلفتا الولايات المتحدة آلاف الضحايا .

كان الرئيس « ترومان » قد اتخذ قراره التاريخي الخطير بضرب المدن رغم نصائح بعض المستشارين الذين اقترحوا عليه اجراء تجربة أو بيان عملي على احدى جزر المحيط الهادي يحضره مراقبون من طرف الميكادو ، حيث يستطيعون أن يشاهدوا بأعينهم ما سوف ينتظرهم اذا لم يستسلموا دون قيد أو شرط . كذلك اقترح آخرون اختيار هدف عسكري بدل مفاجأة سكان مدنيين عزل من السلاح رغم أن الخسائر والوقع المعنوي ستكون أقل بكثير ، الا أن الرئيس الامريكي فضل توجيه ضربة قاسية لا تترك مجالا للتردد ...

في « لوس ألاموس » ، وبعد نشوة الانتصار العلمي والعسكري ، ما لبث الحماس أن تبدد ليحل محله شعور ثقيل بالمسؤولية لدى معظم العلماء الذين أخذوا يدركون هول العمل الذي قاموا به وانعكاساته المستقبلية على الجنس البشري .

بعد ذلك بخمس سنوات ، رأينا أن الرئيس « ترومان » نفسه ، الذي أعطى الضوء الاخضر لقنبلة هيروشيما ، لم يجرؤ على اعادة استخدام السلاح نفسه في كوريا لانقاذ الجيوش الامريكية من الهزيمة المؤكدة .

* * *

في الحقيقة ، لا يمكن لعجلة التاريخ أن تغير اتجاه دورانها . فالسلاح الذري كان ماثلا في أذهان العلماء قبل الحرب العالمية الثانية ، والمعلومات العلمية الاساسية لم تكن سرا على أحد ، وخاصة في أوروبا حيث أصدر الفرنسيون البراءات الاولى في شهر أيار من عام ١٩٣٩ ، قبل بدء الحرب بأربعة أشهر فقط . لذلك كان لا بد لهذا السلاح أن يظهر عاجلا أم آجلا في هذا المكان أو ذاك ... وقد شاءت الظروف أن يظهر في الولايات المتحدة قبل غيرها من دول العالم . وقد حاول الامريكيون اعادة العملاق الذري الى قمقمه بموجب « مشروع باروش » سنة ١٩٤٦ ، الا أنهم لم ينجحوا في ذلك نتيجة عدم موافقة ستالين الذي فجر قنبلته الاولى بعد هيروشيما بأربع سنوات أمام دهشة العالم باستثناء العالمين بخفايا الامور . كان من الممكن أن تصبح القنبلة الذرية درعا للسلام أكثر منها أداة للحرب والدمار . وقد كرس « ادوار تيلر »

عبقريته لخدمة هذه القناعة فواصل أعماله وتجاربه بحماس حتى توصل أخيرا الى صنع القنبلة الهيدروجينية بدعم من الرئيس « ترومان » نفسه رغم أعتراض الكثيرين من العلماء والرأي العام . الا أن القنبلة الهيدروجينية الروسية تفجرت تقريبا في نفس الوقت مع القنبلة الامريكية . وهكذا لحق الروس بالامريكيين .

منذ « لوس الاموس » ، التي مضى عليها ٣٥ عاما ، وأنا أتابع العمل والبحث في هذا المجال الذي وضعتني فيه الاقدار صدفة في شتاء عام ١٩٤٣ وبسببه . في مؤسسة « راند كوربورايشن » ، حيث لحق بي صديقي « هيرمان كهن » الذي بدأ أبحاثه ومؤلفاته الشهيرة حول الاستراتيجية الحرورية ــ النووية والتصعيد وغيرهما ، بقيت أنا مركزا اهتمامي على أحد تأثيرات السلاح الجديد ، وهو **التأثير الاشعاعي** . لقد كانت وما زالت قوة الاسلحة الجديدة تقاس ، على ضوء عاصفة اللهب والضغط اللذين اجتاحا هيروشيما ، بالكيلو طن من المتفجرات الكلاسيكية . أما أنا ، فقد لفت انتباهي بشكل خاص هذه الموجات العجيبة من النيوترونات وأشعة غاما التي تشكل في الواقع التأثير النووي للقنابل الذرية . لذلك اتجه تفكيري نحو عزل هذا التأثير الاشعاعي عن التأثيرات المدمرة الاخرى ، لكي تصبح الاشعاعات وحدها أساسا لصنع سلاح جديد يقتل دون أن يدمر ...

* * *

بعد مرور خمسة عشر عاما ، أي في مطلع الستينات ، جاءت نظرية **« الرد المرن »** في عهد الرئيس « جون كنيدي » بمثابة « دوش » بارد لجميع التقنيين والتكتيكيين الذين كانوا يعملون من أجل السلاح النووي التكتيكي . في هذه الفترة بالذات ، قام ضابط فرنسي ، هو العقيد « مارك جنيست »(١) الذي كان يعمل في مدرسة الحرب الامريكية ، بنشر دراسة جديدة ترفض رفضا قاطعا كل ما يتعلق بالعقيدة الامريكية الجديدة . في هذا المقال الجريء ، هاجم العقيد الفرنسي الافكار السائدة حول الردع النووي ، واقترح دفاعا نوويا تكتيكيا طوال الستار الحديدي لاكمال الرعب الاستراتيجي ومواجهة

---

(١) ــ الذي شارك في تأليف هـذا الكتاب .

احتمال فشله . لذلك طالب بتركيز كافة التأثيرات الممكنة للاسلحة النووية على رقعة محددة من الارض لتكون أشبه بسد من شأنه حل كافة المسائل العسكرية المطروحة دون أن يؤدي ذلك بالضرورة الى قتل المدنيين وتفجير الكرة الارضية .

لم أفهم آنذاك كيف استطاع هذا الضابط الفرنسي المفرز الى مدرسة الحرب الامريكية أن يحصل على موافقة الحكومتين اللتين كان تابعا لهما على نشر نظريته تلك التي كانت تتعارض تماما مع العقيدة الرسمية للبلدين . أغلب الظن أن هيئة الاركان في كل من الولايات المتحدة وفرنسا قد وجدت في ذلك المقال الخطير دحضا أقوى لاستراتيجية الطرف الآخر ، خاصة وأن استراتيجية « **الرد الشامل** » للجنرال ديغول كانت تزعج الرئيس كينيدي تماما كما كانت نظرية « **الرد المرن** » تقض مضجع الجنرال ديغول ...

مهما يكن الامر ، فقد أحدث هذا المقال الجريء ضجة في الولايات المتحدة ، وبدأ التفكير يتجه نحو ما كنت أعمل فيه منذ سنوات : الاشعاعات النووية وقنبلة النيوترون .

عندما التقيت بالعقيد « جنيست » سنة ١٩٦٩ ، لم تكن أبحاثي تجري في الاتجاه الذي تريده حكومتي كما سنرى فيما بعد . أما نظرياته في التكتيك ، فكانت تناقض الافكار السائدة والمدرَّسة في كافة مدارس الحرب آنذاك ، التي كانت تركز على سمة الحسم في الهجوم المدرع على غرار ما فعله « غودريان » وعلى ضوء الدروس المستفادة من الحرب العالمية الثانية . الا أنني وجدت في هذه الافكار المجال التطبيقي المثالي لاعمالي وأبحاثي ، كما وجد العقيد « جنيست » في تأثيرات الاشعاع الوسيلة المثلى للدفاع ضد الدبابات والسند القوي العملي لنظرياته .

وهكذا بدت وجهات نظرنا ، التكتيكية والتقنية ، متكاملتين ، مما أدى الى ظهور هذا الكتاب بعد عشر سنوات من الدراسة والعمل المشترك .

سام كوهين

الفصل الثاني

١ – تاريخ قنبلة النيوترون وأصلها ، مشاكلها السّياسيّة ، تأثيراتها

شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية بداية العصر الذري نتيجة قصف مدينتين يابانيتين هما : هيروشيما وناغازاكي . وقد جاءت النتيجة مذهلة : حيث أنقذت أرواح آلاف الشبان الامريكيين من الموت المؤكد بثمن باهظ هو ابادة آلاف المدنيين اليابانيين العزل . وهكذا آمن الناس بظهور السلاح المعجزة ...

لذلك كان من الطبيعي أن يعمد المفكرون للتطلع الى مستقبل هذا السلاح الثوري الذي اتجه للوهلة الاولى نحو الاستفادة من الفضائل الارهابية للقنابل الذرية . الا أن معظم الخبراء كانوا يقفون مترددين أمام التكاليف الباهظة لهذه الاسلحة . فقد كلف « مشروع منهاتن » حوالي ملياري دولار في عام ١٩٤٤ ، أضف الى ذلك ندرة المواد القابلة للانشطار كاليورانيوم ٢٣٥ والبلوتونيوم ، واعتقاد الكثيرين من العلماء بأن « قوانين الطبيعة » المتعلقة بالكتلة الحرجة للمادة المنشطرة ستحول دون استخدام هذا المتفجر الجديد على شكل قذائف في ساحة المعركة . ويمكن أن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر ما قاله « ڤانڤار بوش » ، وهو من مشاهير العلماء الذين ساهموا بقسط وافر في مشروع « لوس الاموس » ، سنة ١٩٤٩ :

« ان القنبلة الذرية غير قابلة التقسيم ، لأن هذا مخالف لقوانين الفيزياء . لذلك أستطيع القول بأنه لن تكون هناك أبدا قذائف مزودة بحشوات نووية ،

ولا يمكن استخدام القنابل الذرية الا ضد أهداف هامة جدا تبرر الجهد الضروري لصنعها » ...

وهكذا كان احتمال استخدامها في ساحة المعركة يبدو مستبعدا ، لأن الاهداف المناسبة آنذاك كانت تنحصر في المدن والمراكز الصناعية الكبرى .

علاوة على هذه الحجج المادية القابلة للتصديق آنذاك ، يمكن اضافة حجة أخرى لا تقل أهمية : فسلاح الجو الامريكي هو أول من استلم واستخدم قنبلتي هيروشيما وناغازاكي . لذلك كان من الطبيعي أن يسعى لكي يحافظ على احتكار هذا الامتياز الهائل ويبقيه « استراتيجيا » ويحارب كل مشروع من شأنه فتح أية آفاق « تكتيكية » منافسة .

في هذه الاجواء الموجهة كليا نحو الخيار الاستراتيجي ، كان من الصعب ، بل من الخطر على العسكريين أن يجازفوا بالدفاع عن فكرة الاسلحة النووية التكتيكية .

الا أنه من المستحيل ايقاف التقدم كما يقال ، لذلك تابع علماء « لوس الاموس » أبحاثهم لحسابهم الخاص ، وأخذوا يصنعون قنابل أقل وزنا من القنابل الاولى بحيث يمكن تحويلها بسهولة الى قذائف تكتيكية . عندئذ استولى سلاح الطيران الامريكي على هذه الاسلحة الجديدة وعهد بها الى قيادته التكتيكية التي أخذت شكل قيادة جوية استراتيجية مصغرة ، واضعة في حسابها استخدام هذه الوسائط ضد الاهداف الهامة على المؤخرات البعيدة . وهكذا بقي الجدل محصورا على الصعيدين الاستراتيجي وشبه الاستراتيجي ، كما بقي الامل ضعيفا في امكانية رؤية عائلة من الاسلحة النووية ذات الحشوة المتفجرة الضعيفة على ساحة المعركة .

في مطلع الخمسينات ، بدأت ترتسم في صفوف العلماء ، خارج وزارة الدفاع ، حركة تستهدف الاستعاضة عن تصعيد قوة الوسائط النووية الاستراتيجية (التي تستهدف المدنيين) بوسائط أقل قوة يمكن استخدامها لاغراض « عسكرية » بحتة .

كان المحرك الاساسي لهذا التيار من الافكار العالم « روبرت أوبنهايمر » الذي رأينا تحفظه الاخلاقي والمعنوي واضحا عشية القاء قنبلة هيروشيما . لهذا السبب نفسه ، أعلن عن معارضته الشديدة لتطوير القنبلة الهيدروجينية التي تبناها « ادوار تيلر » ونجح في اخراجها الى حيز الوجود بموافقة « هاري ترومان » ومساعي سلاح الجو الامريكي . في عام ١٩٥١ ، قاد « أوبنهايمر » دراسة حول العلاقة الضمنية العسكرية لادخال الذرة في الترسانة التكتيكية ، وقد عمت استنتاجاته معظم الاوساط ذات النفوذ ، على الصعيدين العسكري والمدني ، كما لخصت للرأي العام بالعبارة التالية :

« من الواضح أنه لا يمكن استخدام الاسلحة النووية الا كجزء متمم من حملة عسكرية هدفها احراز النصر العسكري . لذلك لا يجوز أن تكون أسلحة ارهاب ، بل أسلحة مخصصة للقوات المحاربة . وبهذا تصبح جزءا لا يتجزأ من الوسائط العسكرية . عندما يعترف الجميع بأن القنبلة الذرية مخصصة للعمليات العسكرية ، عندئذ فقط يمكنها القيام بدورها كاملا في الحفاظ على السلام » .

وافق على هذه الفكرة الاساسية العديد من المفكرين ؛ وفي عام ١٩٥٢ ، كتب السيد « غوردون دين » يقول :

« بفضل التطورات التقنية الثورية ، أصبح من الضروري اعادة النظر جذريا بمفهوم استخدام الاسلحة النووية . لذلك لم يعد من الجائز استخدامها على غرار هيروشيما فقط ، أي ضد المدن والمراكز الصناعية ، بل أصبح من الممكن الحصول على عائلة كاملة من الاسلحة الذرية التي لا تستخدم بواسطة القاذفات فقط ، بل كذلك بواسطة الطائرات التكتيكية والقوات البرية والبحرية » .

لقي « غوردون دين » دعما قويا من قبل « توماس موراي » ، زميله في لجنة الطاقة الذرية ، والذي كان متحفظا بدوره من اقتصار دور الاسلحة النووية على تدمير « النسيج الاجتماعي » للخصم .

أدى هذا التيار الفكري ، مع التقدم التقني السريع ، الى تطوير عائلة من الاسلحة ذات الانشطار المصغر التي يمكن استخدامها بواسطة صواريخ

تكتيكية تابعة للقوات البرية والبحرية . ومنذ منتصف الخمسينات ، بدأ سيل حقيقي من هذه الاسلحة يتدفق على القوات المسلحة الامريكية ، وخاصة في اطار حلف الاطلسي ، استمر هذا التدفق حتى مطلع الستينات الى أن بلغ حجم المخزون حوالي (٧٠٠٠) صاروخ ، وهذا عدد بقي شبه ثابت ومستقر الى يومنا هـذا .

الا أن تصور معظم المفكرين بقي نفسه دون تغيير : اذ كان المطلوب دائما الحصول على أكبر انفجار ممكن بوسائط ذات حجم أصغر وكلفة أقل . بهذا ، كان معظم المفكرين يغفلون المضاعفات السياسية للاضرار الجانبية التي بدأت تقلق الحلفاء الاوروبيين الذين ستكون بلادهم مسرح تطبيق لمثل هذه الانفجارات في حالة الحرب .

أخيرا ، لا بد من القول بأن العسكريين ، المحافظين بطبيعتهم ، كانوا يطالبون بتدمير الاهداف التكتيكية بدقة أكبر . في اطار هذا المنظور ، اذا كان الهدف فوج دبابات مثلا ، كان المعيار المطلوب هو تدمير الدبابات نفسها بدلا من ابطال الطواقم . ونظـرا للتباعدات المحتملة للرمايات والمقاومة القويـة للدروع ، كان لا بد بطبيعة الحال من قوة انفجار هائلة .

خلال دراسة اشتركت فيها شخصيا لصالح حلف الاطلسي حول تحليل الاهداف ، كانت تصادفنا حالات كثيرة نضطر معها ، من أجل تدمير جسر هام مثلا ، لاختيار حشوة تدمر في الوقت نفسه كامل المدينة المجاورة .

على ضوء ما تقدم ، بدأت أهتم جديا بهذه المسائل ، وبالبحث عن سلاح يستطيع التمييز بين الاهداف دون أن يضيع واحد بجريرة الآخر .

(١) - الخرق التكنولوجي

من الغني عن القول التنويه بأن هذه المدرسة الفكرية ظلت أقلية لا تؤثر كثيرا على دوائر « البنتاغون » بسبب النفوذ الكبير الذي مارسته قيادة القوى الجوية . لذلك لم يمكن انتزاع أية مخصصات مالية تذكر لتطوير الاسلحة التي كنا نفكر فيها . ومن الغريب فعلا أن يؤدي مجال مختلف ، بل مناقض ، هو مجال القنابل الثقيلة ، الى ظهور مفاهيم تكنولوجبة جديدة والى اكتشاف مبدأ الاسلحة ذات الاشعاع المعزز وتطبيقاته العسكرية ...

في ربيع عام ١٩٥٤ ، وفي بيكيني (من جزر مارشال) ، أدى انفجار قنبلة هيدروجينية ، فاقت قوتها التوقعات ، الى قتل عدد من السكان المحليين بالاضافة الى بعض الصيادين اليابانيين بسبب الاسقاطات الاشعاعية . على أثر ذلك تنبه الرأي العام الامريكي والعالمي الى خطورة الاسقاطات الحرورية النووية . وفي مطلع عام ١٩٥٦ ، بدأ هذا الموضوع يأخذ أبعادا وطنية ودولية واسعة ، كما أثير في معركة الانتخابات الرئاسية ، مما أدى الى تزايد الضغط في الولايات المتحدة وغيرها لايقاف التجارب النووية الى أن اتفقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على ايقاف هذه الاتجارب في عام ١٩٥٨ .

في الوقت نفسه ، بدات لجنة الطاقة الذرية تهتم بموضوع تدمير الاسقاطات الاشعاعية بشكل جدي . ولما كان المصدر الرئيسي للاشعاع الخطر يكمن في المركب المنشطر للانفجار الحروري النووي ، أخذ البحث يتجه نحو كيفية الحد الى أقصى درجة ممكنة من هذا المركب ، وخاصة في مختبر « ليفرمور » المنشأ حديثا في كليفورنيا .

كان المحرض الاول على هذه الابحاث هو « ادوار تيلر » ، مخترع القنبلة الهيدروجينية . فقد عرض مكتشفاته في هذا المجال على زعماء واشنطن ، بما فيهم الرئيس « أيزنهاور » ومستشاروه الرئيسيون . كان هدفه الاول هو الحصول على الموافقة اللازمة لمتابعة التجارب النووية للوصول الى ما سمي آنذاك بالقنابل النووية « النظيفة » . صحيح أن هذه المحاولة قد فشلت ، الا أنها تركت أثرا عميقا في أذهان أولئك القادة ، كما يدل على ذلك التصريح التالي الذي أدلى به « جون فوستر دالس » في شهر تشرين الاول من عام ١٩٥٧ :

« ان مخيلة أولئك الذين يخدمون بلدنا في مجال العلم وتطور الاسلحة تثبت أنه من الممكن تغيير طبيعة القذائف النووية . ويبدو أن استخدامها لا يؤدي بالضرورة الى التدمير الشامل وهلاك الجنس البشري . فها هي التجارب الحديثة تدعو للاعتقاد بأنه من الممكن صنع أسلحة تنحصر تأثيراتها وذيولها الاشعاعية في الهدف المختار » .

طوال حكم الرئيس « أيزنهاور » ، ظلت السياسة الدفاعية الامريكية تتوقع استخدام الاسلحة النووية وفق خيارات عدة وفرضيات مختلفة . في حدود الامكان ، كان على الاسلحة النووية التكتيكية أن تحل محل الذخائر التقليدية التي لن تكون لها أية فائدة الا في المجالات التي لا تستدعي الذخيرة النووية التكتيكية أو لا تتناسب مع تكاليفها المرتفعة نسبيا .

في عام ١٩٥٥ ، كان « فوستر دالس » قد حدد هذه السياسة بوضوح . فقد كانت ناجمة بالدرجة الاولى عن الحرب الكورية حيث فضلت الحكومة الديموقراطية ترك آلاف الشبان الامريكيين يذبحون بدلا من اللجوء الى أسلحة التدمير الشامل وتحقيق التعادل غير المشرف .

لذلك أعلن « دالس » يقول : « تتلخص السياسة الحالية باللجوء أكثر فأكثر الى الترسانة النووية بدلا من التقليدية للعمليات التكتيكية . فمن الطبيعي اذن ، كلما أمكن استبدال ما يسمى الآن بالاسلحة التقليدية بهذا النوع الجديد من السلاح ، فلن يكون هناك مجال للتردد » .

في هذا الجو السياسي ، بدأت وزارة الدفاع الامريكية تهتم أخيرا بمسائل

الحرب المسماة « **بالمحدودة** » ، والمتناقضة مع تعريف الحرب « **الشاملة** » التي تستلزم تدمير المدن وابادة المدنيين . عندئذ بدأت القوى (الجيوش) المختلفة تهتم بهذا الميدان ، بما في ذلك القوى الجوية التي لم تكن شديدة التحمس بطبيعة الحال . وفي عام ١٩٥٨ ، تم تشكيل لجنة من الباحثين لصالح القوى الجوية اجتمعت في « بورتوريكو » ، حيث عينت عضوا منها كممثل عن مؤسسة « راند كوربورايشن » . انبثقت عن هذه اللجنة لجنة فرعية كلفت بدراسة الآفاق التكنولوجية للمتفجر النووي ، مما دفعنا بطبيعة الحال الى زيارة مختبر « ليڤرمور » .

بتحريض من « تيلر » نفسه ، قام المختبر بتوجيه أبحاثه النظرية والعملية الى المتفجرات النووية الضعيفة ، ذات الانشطار المصغر والمعدوم . وباقتراح من « جون فوستر » ، أحد كبار المسؤولين في « ليڤرمور » والذي أصبح فيما بعد مديرا للابحاث في « البنتاغون » ، تم توجيه مجموعتنا نحو طاقم الفيزيائي المعروف « شارل مكدونالد » الذي كان على اطلاع تام بهذه المسائل .

على أثر هذه الزيارة والزيارات التي تلتها ، والتي أثبتت بوضوح ميزات وخصائص الانفجارات ذات القوة الضعيفة المستثمرة المواد المنشطرة (أي احتراق نوايا الهيدروجين الثقيل) ، ظهر الى الوجود مفهوم الاسلحة ذات الاشعاع المعزز .

كان خبراء « ليڤرمور » واثقين اذن من أن نسبة كبيرة جدا من النيوترونات ذات الطاقة العالية ، المشكلة نتيجة ردود فعل الانصهار ، ستنجم عن مثل هذه المتفجرات . وهكذا بدا لي أن ذلك يمكن أن يفسح المجال أمام فئة من الاسلحة الجديدة التي يمكن استخدامها في ساحة المعركة ، او للتطبيقات المضادة للصواريخ . أما تأثيرها الرئيسي فسيكون موجات فورية من النيوترونات بينما سيبقى الضغط والتأثير الحروري محدودين نسبيا . أي على نقيض ما حدث في هيروشيما .

الا أنه كان لا بد من تقدير التأثيرات الحقيقية لهذه الاشعاعات على الاشخاص لكي نخرج باستنتاجات تتعلق بفعاليتها العسكرية . وقد تبين لي بالحساب البسيط أن الفعالية المضادة للاشخاص لمثل هذه الاسلحة يمكن

مقارنتها بفعالية سلاح يعمل على مبدأ الانشطار بقوة تساوي عشرة أمثال ، أي ذات تأثير في الحرارة والضغط يقل عشرة أمثال .

اذا كانت حساباتي الاولية صحيحة ، فان هذا يعني ظهور سلاح جديد تماما ، يختلف بخصائصه عن كافة الاسلحة المعروفة ، سواء منها التقليدية او النوويــة .

لكي أتأكد من صحة حساباتي ، طلبت مساعدة « جيس مركوم » الذي كان يعتبر آنذاك أفضل أخصائي أمريكي في حساب انتشار الاشعاعات النووية في كافة الاجواء والاوساط . كان « مركوم » هذا مهندسا وفيزيائيا قاد بنجاح أبحاثا هامة عن الرادار أثناء الحرب . عند انتهاء الحرب ، تابع أعماله حول فعالية تقنيات الكشف ، مما أكسبه شهرة واسعة ، وخاصة فيما يتعلق بنظرية الاحصائيات . وبعد ذلك تحول انتباهه الى مجال سباق الخيل : حيث وضع اسلوبا يمكنه من معرفة نتائج السباق بأسلوب علمي لا يخطىء . عندئذ فكر في استغلال مواهبه الفذة لجمع المال بأسرع وسيلة ممكنة ، فترك الرادار وتوجه الى مدينة القمار في « لاس فيغاس » حيث كاد يفلس أصحاب دور القمار الى أن اتفق الجميع على منعه من اللعب والمراهنة . لذلك قرر العودة الى أعماله الحسابية والرياضية الاصلية من جديد . وهكذا وجد لذة كبيرة في الحسابات التي عرضتها عليه ، فأثبتت تحرياته صحة تقديراتي الاولية . وفي خريف عام ١٩٥٨ ، كان تقريري الاولي جاهزا ، وقد أطلقت على السلاح الجديد اسم « قنبلة النيوترون » أو « الاشعاع المعزز » . واخيرا أقدمت على الخطوة الحاسمة ، وهي عرض الموضوع على دوائر « البنتاغون » .

٢ – الجولة الأولى (١٩٥٨ – ١٩٦٣)

لكي نفهم جيدا ما سيأتي من حديث وأحداث ، لا بد لنا من وصف الجو السائد في دوائر « البنتاغون » آنذاك .

كانت ادارة الرئيس « ايزنهاور » لا تزال في الحكم منذ عام ١٩٥٢ ، كما كانت سياستها الدفاعيه موجهة بوضوح ، بعد التجربة الكورية ، نحو افضلية استخدام الاسلحة النووية . أما العنصر الاساسي لهذه السياسه فكان عقيدة « الرد الانتقامي المكثف » على المعتدي المحتمل ، أو بتعبير أوضح : القصف الاستراتيجي للاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية . صحيح أنه كانت هناك بعض المعارضة ، حتى على أعلى المستويات ، الا أن الفلسفة السائدة بقيت تتلخص في الرد الانتقامي المضاد للمدن .

كانت قيادة القوى الجوية الاستراتيجية مسيطرة بلا منازع ، وحجتها الرئيسية هي اسطول القاذفات الثقيلة . وقد قال لي الجنرال « كورتس » ، قائد هذه القوى آنذاك ، في أحد الايام : « ان التقدم الوحيد الذي أطلبه من المهندسين النوويين هو انجاز قنبلة قادرة تستطيع وحدها تدمير الاتحاد السوفييتي » . كما أكد لي أن الصواريخ لن تستطيع الحلول محل القاذفات الجوية طالما بقي على قيد الحياة ... لذلك بقيت القوات البرية والبحرية ضحية هذه الاستراتيجية، ولا تنال من مخصصات الموازنة سوى النذر اليسير .

داخل القوى الجوية ، التي كانت تسيطر عليها تماما القيادة الجوية الاستراتيجية ، كان الموقف تجاه السلاح التكتيكي يتراوح بين عدم المبالاة والعداء الصريح .

في هذه الاجواء بالذات ، القيت أول محاضرة لي عن قنبلة النيوترون . ولست بحاجة للتأكيد هنا بأن الصدى الذي تركته كان ضعيفا ، الا أن بعض الحاضرين (وجميعهم من المدنيين) حاولوا اعطائي فرصة لالقاء محاضرة أخرى في أركان القوى الجوية ، ولكن النتيجة لم تكن أفضل من سابقتها .

في هذا الوقت بالذات ، عين المقدم البحري « مورس » في مكتب الامن القومي التابع للبنتاغون ، حيث عرفني عليه أحد العلماء الفيزيائيين الذين عملت معهم في « لوس ألموس » ، ويدعى « أرنولد كراميش » . وعندما عرضت عليه مشروعي الجديد ، بدا « مورس » وكأنه وجد ضالته . لذلك أخذ يبحث فورا عن الجهة التي يمكنها دعم المشروع ودفعه للامام ، فلم يجد أفضل من قيادة القوى البحرية . آنذاك ، كانت البحرية الامريكية تسعى بشتى الوسائل للدفاع عن حاملات الطائرات ، ولكن القيادة الجوية الاستراتيجية كانت تسيطر على القطاع الاستراتيجي بشكل لم تترك معه مجالا يذكر للبحرية . لذلك كان من الطبيعي أن تهتم بالحرب النووية المحدودة التي تتناسب مع عمليات تستند الى حاملات الطائرات .

في كانون الثاني من عام ١٩٥٩ ، اتصل « مورس » بالاميرال « توماس مورر » ، الذي عين مجددا كمسؤول عن خطط البحرية البعيدة المدى ، واقترح عليه ترتيب محاضرة عن المفهوم الجديد ، تلقى على مجموعة الضباط الذين يحضرون الاجتماع الاسبوعي لرئيس الاركان ، فوافق الاميرال دون تردد . بعد ذلك بفترة وجيزة ، القيت أولى محاضراتي أمام أميرالات البنتاغون مجتمعين .

هنا نجحت الفكرة تماما ، ولاقى المفهوم الجديد قبولا وحماسا شديدين من قبل الحاضرين ، كما تم الاتفاق على دعم هذا المشروع بفضل ديناميكية الاميرال « مورر » .

في تلك الفترة ، قررت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي تجميد تجاربهما النووية ، الذي دام ثلاث سنوات حتى خرقه السوفييت في شهر أيلول من عام ١٩٦١ . عندئذ ، دعيت لاستئناف عملي ومحاضراتي ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت التجارب العملية في نيڤادا شمال « لاس ڤيغاس » .

ومن المفيد هنا أن أذكر بعض الحوادث التي حصلت لي لأنها تعكس جيدا الجو السائد آنذاك في الاوساط العسكرية والمدنية وآراء هؤلاء وأولئك فيما يتعلق بقنبلة النيوترون .

أخذت القوى البحرية ، علاوة على بحثها عن الدعم في « البنتاغون » ، تحاول الاتصال بكل من يمكن أن يعنيه هذا الموضوع من دوائر وأجهزة وأشخاص. لذلك كان يتابع محاضراتي عدد كبير من الموظفين المدنيين بالاضافة الى حوالي مئتي ضابط من هيئة الاركان المشتركة . فمن الطبيعي اذن أن يثير هذا الاهتمام المتزايد حفيظة القوى الجوية التي أحست بالبساط يسحب من تحت أقدامها تدريجيا . وهكذا دعيت في أحد الايام لمقابلة الجنرال « كورتس لوماي » ، الذي أصبح معاونا لرئيس الاركان ، فتوجهت الى مكتبه مع أحد جنرالات القوى الجوية ، علما بأنني كنت أعمل آنذاك لصالح « مؤسسة راند » التابعة للقوى الجوية . لاحظت طوال محاضرتي أن الجنرال « لوماي » كان يحدق في رسومي ومخططاتي بجمود أشبه بالذهول . وعندما انتهيت وقلت له : هل من أسئلة ؟ لم ينبس ببنت شفة ولم يرفع سيجاره من فمه . عندئذ غادرت المكتب بعد الاستئذان دون أن أسمع كلمة شكر أو ترحيب أو وداع .

بعد هذه المقابلة بقليل ، استدعيت الى مكتب الجنرال الذي رافقني خلال المقابلة ، فأخبرني بأن الجنرال « لوماي » يريد مني أن أتوقف فورا عن القاء هذه المحاضرات . ولما طلبت منه استصدار أمر خطي بذلك أجاب : « يمكنك الاستمرار اذا شئت ، شريطة عدم خروج هذا الموضوع عن دائرة البنتاغون » .

وهكذا تابعت محاضراتي كالسابق ، ولكنني كنت الاحظ دائما وجود عقيد من القوى الجوية يراقبني لصالح رئيسه ...

في شهر حزيران من عام ١٩٥٩ ، عرضت مشروعي بالتفصيل أمام وزير الدفاع « توماس غايت » ، ورئيس هيئة الاركان المشتركة ، الاميرال « آرثر رادفورد » الذي بدا لي أكثر الحاضرين تحمسا ، علما بأنه كان في مطلع الخمسينات ذا تأثير كبير على الرئيس أيزنهاور ، كما كان من أنصار استخدام الاسلحة النووية للحيلولة دون وقوع فيتنام في أيدي الشيوعيين .

في نهاية المحاضرة ، قال الاميرال « رادفورد » : « حبذا لو كان لدينا هذا النوع من السلاح عند وقوع معركة (ديان بيان فو) !... » .

كان بين الحاضرين متحمس آخر هو النقيب « بيتر أورند » ، الذي كان مساعدا بحريا للرئيس أيزنهاور . لذلك ما كاد الاجتماع ينفض حتى اصطحبني معه الى البيت الابيض ، حيث قدمني للرائد جون أيزنهاور ، نجل الرئيس الامريكي . عندئذ استأذن الرائد أيزنهاور لبضع لحظات ثم عاد مرتبكا بعض الشيء وقال : « أرجو المعذرة لأن والدي يلعب الفولف ولا يمكن ازعاجه في مثل هذه الحالة » . بعد ذلك جرت عدة محاولات للاتصال بالرئيس ، ولكن المستقبل أثبت ، كما سيتضح فيما بعد ، أن محاولاتنا في تلك الفترة لا يمكن أن تؤدي الى نتيجة ايجابية ولو قابلت الرئيس أيزنهاور .

تحطمت الحواجز تدريجيا وخرج المشروع الجديد من أسوار البنتاغون حتى كلفت بشرحه أمام مجلس الامن القومي ثم أمام وكالة الاستخبارات المركزية التي كانت تحت أمرة « ألان دالس » الذي استغل فرصة المحاضرة لكي يقوم بالقيلولـة ...

(٣) – الصّحافة تظهر على المسرح

كان من الطبيعي بعد هذا اللفط في الدوائر الرسمية أن يصل الموضوع أخيرا الى مسامع الصحافة ، حيث نشرت صحيفة « أخبار الولايات المتحدة وتقرير عن العالم » في عددها خلال شهر ايار من عام ١٩٥٩ نبأ مفاده أن الولايات المتحدة تعمل على صنع سلاح ذي « اشعاع مميت ، يقتل الاشخاص نتيجة موجة صاعقة من الاشعاعات السامة دون أن يؤثر على الآليات والابنية » . كما أضافت الى ذلك قولها « ان تجربة مثل هذه الاسلحة تتحدى الكشف لأن قوة انفجار قنبلة النيوترون ضعيفة لدرجة لا تذكر » .

بعد ذلك ببضعة أسابيع ، نشرت صحيفة « واشنطن بوست » مقالا ادعت فيه انها استطاعت اختراق حجاب السرية المكثف وعلمت أن « السلاح الجديد يصدر اشعاعات مميتة كالقنبلة الضخمة جدا مع قوة انفجار ضعيفة للغاية وتساقطات مشعة لا تذكر . انه سلاح رهيب يستطيع القضاء على تشكيل كبير للعدو بدون أية تأثيرات على البيئة » .

لقد أدركت هذه الصحيفة فعلا المزايا الاساسية للسلاح الجديد ولكنها أدانت بتعابير دراماتيكية العواقب السياسية لمثل هذا السلاح ، حيث قالت :

« الا أن هذه التأثيرات المحدودة من شأنها جعل الحرب ممكنة على أرض الحلفاء ، بل وعلى أرضنا كذلك » . . .

وهكذا انطلق الجدل الكبير في الاوساط السياسية وعلى صعيد الرأي العام بشكل لم تعد تستطيع معه « لجنة الطاقة الذرية » أن تصم آذانها عن هذا الموضوع الحساس . لذلك قام « جون مورس » بمقابلة « جون غراهام » ، مفوض لجنة الطاقة الذرية آنذاك ، ولفت نظره الى الاهمية المتزايدة التي

يعلقها البنتاغون على هذه القضية . عندئذ قام « غراهام » بدعوة أعضاء اللجنة للاستماع الى محاضرتي التي حضرهـا الجميع باستثناء الرئيس « جون ماكون » . حددت لي آنذاك مدة عشرين دقيقة فقط ، أي ثلث الزمن العادي اللازم ، لأن موظفي واشنطن يحبون أن يتظاهروا بضيق أوقاتهم ولو لم يكن لديهم عمل كثير . مازلت أذكر جيدا أن الجدل الذي أعقب المحاضرة دام ساعتين كاملتين ، كما كان ايجابيا لدرجة أن أعضاء اللجنة قرروا الانتقال الى العمل فورا ، فأصدروا أمرهم الى مركز « ليڤرمور » باعطاء هذا المشروع الافضلية الاولى ، كما باشروا باجراءات عرضه على اللجنة المشتركة للطاقة الذرية في الكونفرس ، وقد نفذ ذلك فعلا ، وعلى رئيس الولايات المتحدة ، وهو الامر الذي لم ينفذ مطلقا ...

على ضوء مثل هذه التوجيهات الواردة من المستوى الاعلى ، أقبل باحثوا « ليڤرمور » على العمل بحيوية ونشاط ، خاصة وأن أعمالهم كانت راكدة بسبب تجميد التجارب النووية المتفق عليه مع الاتحاد السوفييتي والذي كان لا يزال ساري المفعول . لذلك كان التقدم سريعا كما هي العادة عندما يتوفر الحافز لدى العلماء . وعندما انتهى مفعول تجميد التجارب النووية في شهر ايلول من عام ١٩٦١ ، كان مختبرنا جاهزا لتجربة أول قنبلة نيوترونية .

بعد اجتماعي الآنف الذكر مع لجنة الطاقة الذرية ، طلب الي عرض المشروع ، مع الدكتور ماكدونالد ، أمام اللجنة المشتركة للكونفرس . كانت تلك آخر درجات السلم التي أرتقيها من البيروقراطية الامريكية ، خاصة وان الكونفرس كان يقوم آنذاك بتوزيع المخصصات المالية ، علما بأنه ، في المجال النووي بشكل خاص ، يعتبر الحكم الاعلى مثل الرئيس تماما .

هنا كانت الكارثة مع الاسف ، لأن سوء الحظ شاء أن تكون لحظة عرض المشروع على الكونفرس أسوأ لحظة يمكن اختيارها ، اذ كان على هذا الكونفرس أن يصادق على تعيين « لويس ستروس » كوزير دولة للتجارة .

كان « ستروس » أحد أعضاء لجنة الطاقة الذرية البارزين ، التي أصبح رئيسها فيما بعد ، ثم مستشارا للرئيس أيزنهاور للشؤون النووية ؛ استطاع

« ستروس » أن يصل في واشنطن الى مركز يحسده وينازعه عليه الكثيرون ، خاصة وأنه اختلف بعنف مع زملائه من أعضاء لجنة الطاقة الذرية ومع الكونغرس والرأي العام فيما يتعلق بالملكية العامة أو الخاصة لموارد الطاقة . في مطلع الخمسينات ، كان هو الذي جعل « روبرت أوبنهايمر » يخسر كل نفوذه في الحكومة ، مما أدى الى اثارة ضغينة الاوساط العلمية وجزء كبير من الرأي العام.

أما ألد أعدائه فكان عضو مجلس الشيوخ « كلينتون أندرسون » (وهو ديموقراطي من نيو مكسيكو) ، الذي كان يشغل وظيفة رئيس اللجنة المشتركة في الكونغرس عند تكليفي بعرض مشروعي عليه . وقد بلغت الكراهية بين هذين الرجلين حدا جعلت معه « أندرسون » مستعدا للتضحية بمستقبله ومركزه في سبيل الحيلولة دون تعيين « ستروس » في المنصب الجديد المقترح .

من الغني عن الذكر القول بأن كل ما كان يؤيده « ستروس » آنذاك كان يلقى معارضة شرسة من « أندرسون » . وقد كان من جملة أسباب الخلاف بين الرجلين احداث مختبر « ليڤرمور » في كاليفورنيا كمنافس لمختبر « لوس ألاموس » في نيومكسيكو التي كان « أندرسون » عضوا عنها في مجلس الشيوخ . وقد نجح « ستروس » في ذلك نتيجة تأثيره على الرئيس أيزنهاور . ولما كانت قنبلة النيوترون قد عرضت كانجاز قام به مختبر « ليڤرمور » ، فان من المحتم أن تلقى معارضة آلية ومسبقة من « أندرسون » ، وهذا ما حدث فعلا ، حيث نهض « أندرسون » قائلا بعصبية ظاهرة : « ان قنبلة النيوترون هذه قنبلة رأسمالية لا أخلاقية ، ولا يجوز أن تدخل في ترسانة أمة متحضرة » .

هنا دخل المشروع فورا في دوامة المصالح الحزبية والشخصية والولاءات المتضاربة لهذا السلاح أو ذاك ، فلم يحصل على جواز مرور لاسباب بعيدة كل البعد عن المبررات التقنية والاستراتيجية والامنية .

في اليوم التالي ، خسر « ستروس » الجولة الثانية في مجلس الشيوخ ، وانتقل الى الحياة الخاصة بعد أعوام طويلة من خدمة الحكومة ، الا أنه أبدى اعجابه بالمشروع الجديد ووعد بالعمل على دعمه بشتى الوسائل .

وهكذا يمكن القول بأن معظم ردود الفعل الموضوعية كانت ايجابية ، رغم

أن البنتاغون لم يتمكن من اتخاذ موقف متجانس حيال المشروع . لذلك ضاعف مختبر « ليڤرمور » جهوده حتى حقق معظم أهدافه باستثناء التجربة الحقيقية . ففي شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٠ ، كتبت « نيوزويك » تقول :

« ان أكبر انجاز رائع ، منذ القنبلة الهيدروجينية ، يتم الآن — على الورق على الاقل — في مختبر « ليڤرمور » ، حيث تجري الدراسات لصنع سلسلة من الرؤوس النووية المصغرة النظيفة ، التي يمكن استخدامها في ساحة المعركة وعلى أقرب مسافة ممكنة من القوات الصديقة . أما تأثيرات هذا السلاح فتظل محصورة بمنطقة الهدف . يشرف على هذا المشروع الدكتور « ادوارد تيلر » ، صانع القنبلة الهيدروجينية ، ولكن العمل لن يتخطى المختبر بسبب تجميد التجارب النووية » .

بدأ الضغط يتصاعد في واشنطن ، داخل لجنة الطاقة الذرية والبنتاغون وبعض لجان الكونغرس لكي يوقف الرئيس تجميد التجارب النووية . وقد كانت الحجة المستخدمة غالبا هي أن قنبلة النيوترون تطور سرا من قبل الروس ، واذا نجحت ستعطيهم تفوقا حاسما وخطيرا للغاية . أما أشد المتحمسين لهذا الموضوع ، فكان عضو مجلس الشيوخ « دود » الذي اتهم الادارة علنا باخفاء الحقيقة عن الشعب الامريكي وحتى عن مجلس الشيوخ نفسه بحجة المحافظة على السر . وقد قال في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ ما يلي :

« رغم حديث الصحافة ، لم أتمكن من الحصول على أية معلومات تتعلق بقنبلة النيوترون بحجة أن هذا المشروع قد تم تصنيفه . وعندما حاولت الاستفسار عن الموضوع من صديقي « ادوارد تيلر » ، رفع ذراعيه الى السماء قائلا : « يجب أن تعذرني لانني لم أسمع به مطلقا » .

« انني أعتبر كل هذا الغموض المحيط بقنبلة النيوترون مثالا للتعسف الرسمي بالمحافظة على السر ... اذا كان من الممكن انتاج هذه القنبلة ، واذا كان هناك أي احتمال لأن يسبقنا السوفييت في هذا المجال ، فمن الواجب أن يعرف الشعب الامريكي بذلك » .

من نافلة القول أن نؤكد هنا بأن صرخة عضو مجلس الشيوخ (دود) قد ذهبت أدراج الرياح ، ولم تذكر الادارة أية تفاصيل رسمية تتعلق بهذا الامر .

هناك شخصية هامة أخرى ، وهي « توماس موراي » ، المفوض السابق في لجنة الطاقة الذرية ؛ كان قد أستمع الى احدى محاضراتي التي نظمتها البحرية في البنتاغون ، لذلك اتخذ هو الآخر من قنبلة النيوترون حجة لكي يدعم وجهة نظره في استئناف التجارب النووية ، فوجه خلال حملة ١٩٦٠ رسالة مفتوحة الى المرشحين ، رتشارد نيكسون وجون كينيدي ، تعتبر بحق وثيقة شبه كاملة حول هذا الموضوع . لذلك وجدت من المفيد أن أوردها بنصها الحرفي الآتي :

٤ تشرين الثاني ١٩٦٠

* * *

« عزيزي نائب الرئيس نيكسون :

و

« عزيزي عضو مجلس الشيوخ كينيدي :

« لقد منعتني التزاماتي في أوروبا من شكركما قبل الآن على جوابكما على رسالتي المؤرخة في ٦ ايلول ، والتي نشرتها على الملأ ، فيما يتعلق بالتهديد الخطير الذي تشكله على أمريكا والعالم الحر كله سياستنا الراهنة حول التجارب النووية .

« لقد أسعدني قبل كل شيء اتفاقكما المشترك على عدم اتخاذ هذا الموضوع كجزء أساسي من السياسة الانتخابية . لذلك أود أن أعلن أمام الرأي العام عن ملاحظاتي التالية :

« أعتقد جازما بأن أيا منكما لم يتطرق جديا لجوهر المسألة في تصريحاته العلنية ، ولم يعط انطباعا بأنه أدرك جيدا مدى الخطر الذى تشكله تجميد التجارب النووية .

« لذلك أجد نفسي مضطرا لأن أطرح مجددا هذه المسألة وأنوه بهذا الخطر.

« من البديهي أن التكنولوجيا النووية تتطور باستمرار وسرعة .

« ان رمز قوتنا العسكرية اليوم هو السلاح النووي المحمول على متن القاذفات النفاثة ، يتممه رمز جديد آخر : هو الرأس النووي للصاروخ البعيد المدى .

« تعتبر هذه الاسلحة رموزا للقوة لانها تمثل قدرة تدميرية غير محدودة . ونحن نعتقد بأن مجرد التهديد باستخدامها كفيل بمنع أي عدوان . لما كانت هذه الاسلحة متوفرة لدى الطرفين ، فان النتيجة الحتمية هي الابطال النووي المتبادل ، لأن أي طرف لن يتجرأ على استخدام هذه الاسلحة خوفا من الرد الانتقامي الرهيب ، وهذا مفهوم سائد ومتفق عليه بصورة عامة .

« الا أن هناك ثغرة في هذا التفكير لم يتطرق اليها أي واحد منكما علنا . ان فكرة التوازن التكنولوجي الدائم سخيفة فعلا ، لأن التقدم مستمر في مجال التكنولوجيا النووية ، وخاصة لدى الجانب السوفييتي الذي يبحث باستمرار وسرية عن كافة الوسائل التي تضمن له تفوقا عسكريا .

« حتى الآن ، تقدمت التكنولوجيا النووية باتجاه رئيسي واحد ، نحو الاسلحة المتعددة الميغا طن ، التي تعتبر قدرتها التدميرية عمياء تماما ؛ لذلك كانت النتيجة تهديدا مستمرا للحضارة الانسانية ، بل وللجنس البشري كله .

« الا أنه لا بد من القول هنا بأن هذا ليس السلاح الوحيد الذي يمكن للتكنولوجيا النووية تقديمه . هناك اتجاهات أخرى مفتوحة من الآن فصاعدا ، ولا شك في أن الدولة التي تسلكها بنجاح ستمتلك رمزا جديدا للقوة العسكرية ، سلاحا نوويا يختلف جذريا عن كل ما هو معروف حتى الآن . . .

« لن يكون السلاح الجديد قنبلة هيدروجينية أكبر أو أكثر تدميرا ولا قنبلة ذرية أصغر حجما وأكثر فعالية ، بل سيكون من طبيعة أخرى . وكل ما أستطيع قوله الآن أنه سيكون مضادا للاشخاص . لذلك سيقتصر استخدامه على المجال العسكري البحت . انه أهل لاستراتيجية ذات طابع عسكري ،

لا يؤدي بالأمة التي تستخدمه الى الانتحار الآلي . من هذه الناحية يمكن القول بأن استخدامه على الصعيد الاخلاقي مقبول أكثر من أسلحة التدمير الشامل الاخرى . وأعتقد بأن من السهل عليكما الحصول على معلومات أوفى عن هذا السلاح الجديد لدى السلطات المختصة .

« ان مخططات هذا السلاح الجديد موجودة في مخابر لجنة الطاقة الذرية منذ فترة . وقد كان بالامكان تجربتها لولا تجميد التجارب النووية . ولا شك في أن هذا التجميد قد حال عمليا دون تقدم الولايات المتحدة على خصومها من حيث القوتين العسكرية والسياسية .

« انني على يقين من أن الاتحاد السوفييتي يقوم حاليا بتوجيه أبحاثه التكنولوجية في هذا الاتجاه الثوري . بل أعتقد بأنه لا بد أن يكون قد أجرى بعض التجارب على هذا السلاح الرابع دون أن نستطيع كشفها .

« لنفترض الآن أن الاتحاد السوفييتي يمتلك قبلنا هذا السلاح الجديد . ولا بد لمثل هذه الفرضية أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل أي سياسي مسؤول ، يستطيع بسهولة أن يتنبأ بالعواقب المترتبة على ذلك .

« ان القنبلة الهيدروجينية ، رمز قوتنا ، قد أصبحت رمز ضعف ونقص . أما استراتيجيتنا ، المستندة على الردع والرد الانتقامي بواسطة القنبلة الهيدروجينية ، فقد بدأت تنهار لأن الاتحاد السوفييتي قد حصل على ميزة حاسمة ، كما انعكس توازن الرعب الحالي . فالولايات المتحدة قد أصبحت معرضة لنوع جديد من التهديد ، لم يعد ينفع معه التهديد بالرد الانتقامي بواسطة القنابل الثقيلة الضخمة . لقد أصبح للابتزاز النووي معنى جديد ، كما أصبح بامكانه أن يكون من طرف واحد . ولا بد من القول هنا بأنه لم يعد لدينا ما نجابه به هذا الابتزاز سوى القنابل القديمة التي عفى عليها الزمن .

« ليس هذا الكلام ضربا من الوهم أو الخيال ، بل هو حساب علمي عقلاني من قبل أناس يعرفون جيدا مسيرة التكنولوجيا النووية ومنحاها . ان التقدم العلمي يجب أن يكون أساس السياسة العسكرية . انني آسف لهذا القول ،

ولكنه واقع لا مفر منه . وأنا واثق من أنكم تتفقون معي على أنه من الضروري مواجهة الوقائع صراحة مهما كانت غير سارة ولا مرضية .

« يلقي هذا الواقع ضوء جديدا على مسألة التجارب النووية ، حيث يبين أن سياستنا تعتبر الآن تهربا أمام حقيقة العالم التكنولوجي طالما استمر هذا التجميد من طرف واحد كما هي الحال منذ عامين .

« بهذا يصبح جهازنا النووي الجامد أشبه بخط ماجينو الذي يجعلنا ننام خلفه في أمن وهمي خداع .

« انني أعتقد جازما ، كما قلت مرارا وتكرارا ، بأن المفاوضات حول الاشراف على التسلح تمثل الحلبة الرئيسية للحرب الباردة ، حيث يجب علينا أن نفتش في آن واحد عن مكاسب سياسية وفرص أفضل للسلام . الا أنني أعتقد أيضا بأن أساس سياستنا في هذه المفاوضات يجب أن يكون الاهتمام الدائم بالمحافظة على قوتنا وأمننا بفضل التقدم التكنولوجي المستمر .

« لذلك يجب متابعة هذه المفاوضات بذكاء وثبات ، ولكن ضرورة هذه المفاوضات لا يمكن أن تكون عذرا لتأجيل استئناف التجارب الضرورية من أجل التزود بأسلحة متطورة من الجيل الثالث . ولا شك عندي في أن معرفة من سيكون البادىء بامتلاك هذه الاسلحة ستكون مسألة حياة وبقاء .

« لقد اعترضت دائما على تحكم التكنولوجيا بالشؤون السياسية والعسكرية . الا أنني أعتقد بأن أية سياسة تتجاهل التقدم التكنولوجي تظل بعيدة عن الواقعية . لذلك أطلب منكما معا مزيدا من الاهتمام بالحقائق التكنولوجية لعصرنا في علاقاتها بمسألتي التسلح ومراقبة التسلح .

« على هذه المسألة المعقدة ، يجب أن ينصب اهتمام الرئيس الجديد بعون الله » .

المخلص

« توماس موراي »

هل كان لهذه الوثيقة الرائعة تأثير يذكر على المرشحين ؟ من المؤكد أنها لم تترك أي تأثير على الرئيس المنتخب ، اذ فاز « جون كينيدي » على « نيكسون » بأغلبية ضئيلة . وقد كان لهذا الانتصار تأثير حاسم على مستقبل قنبلة النيوترون ، حيث قدر لها أن تدفن لمدة تقارب الخمسة عشر عاما . تابع « موراي » جهوده عبثا لاقناع الرئيس . كذلك حاول عضو مجلس الشيوخ « دود » ، فور الاعلان عن فوز « كينيدي » ، أن يعرض عليه المسألة قبل انتقاله الى البيت الابيض ، حيث يصعب الوصول اليه ، فكتب له الرسالة التالية داعيا اياه لمقابلتي مع « مورس » :

٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٠

« سيادة الرئيس :

« أشكرك من صميم قلبي على رسالتك اللطيفة في ٢٢ تشرين الثاني ، خاصة وانا أعلم مدى انشغالك في هذه الايام .

« لقد ترددت في الكتابة اليك في هذه الفترة بالذات ، ولكنني سمحت لنفسي بالكتابة اليك شخصيا ليقيني بأن الموضوع على درجة كبيرة من الاهمية .

« ذكرت بعض الصحف منذ أسبوع نبأ مفاده أنكم تلقيتم ايضاحات من بعض علماء الذرة تؤكد شكوكهم فيما يتعلق بقدرة القنبلة النيوترونية . لست أدري اذا كان هذا النبأ صحيحا أم لا ، ولكنني أشعر بالقلق لأن هؤلاء العلماء ، الذين يشككون في امكانية صنع قنبلة النيوترون أو يقللون من قيمتها ، قد أعلنوا عن تصريحاتهم أمام الصحافة والرأي العام ، بينما اضطر أولئك الذين عملوا في هذا المجال لالتزام الصمت احتراما للسر وحفاظا على الامن .

« علمت من مصادر مطلعة ومتخصصة أن قنبلة النيوترون ليست قابلة للصنع فحسب ، بل أصبحت شبه جاهزة نظريا وتجريبيا ، كما عرفت بأنه سيكون لها تأثير كبير في مجال الحرب المحدودة وتطور الصواريخ المضادة للصواريخ .

« أي الطرفين على حق ؟ من البدهي أنه لا بد من الاستماع لوجهتي النظر من المعنيين . لست أدري يقينا كل جوانب الموضوع وانعكاساته ، ولكنني أعتقد بأن التاريخ كان يعطي الحق دائما للذين يقولون : « يجب علينا ونستطيع » أكثر من الذين يقولون : « ليس واجبا علينا ولا نستطيع » ... وبهذه المناسبة ، أريد أن أذكرك أنه في الماضي القريب ، وقبل عام واحد من تفجير أول قنبلة هيدروجينية ، سمعنا « هانس بيت » وغيره من معارضي هذه القنبلة يقولون حرفيا : « لا نستطيع صنعها ولا يجب علينا صنعها » .

« ان ما أعرفه عنك يا سيادة الرئيس يجعلني واثقا من أنك ستطلب الاطلاع على كافة عناصر هذه الاضبارة قبل اتخاذ اي قرار بشأنها . كما أتصور أنك ترغب في أن يعرف الشعب الامريكي حقيقة الامر في موضوع قد يتوقف عليه مصير العالم الحر .

« لذلك أرجو أن تأخذوا بعين الاعتبار الاقتراح التالي :

« علمت مؤخرا أن طاقما مؤلفا من شخصين يعملان لصالح الحكومة بشكل غير مباشر قد ألقيا سلسلة من المحاضرات حول التطبيقات العسكرية لقنبلة النيوترون على مجموعات من كبار ضباط البنتاغون وعلماء من لجنة الطاقة الذرية . واذا صحت معلوماتي بهذا الشأن ، فان وزارة الدفاع قد قررت اعطاء أفضلية خاصة لتطوير هذا السلاح .

« اذا كان باستطاعتكم تخصيص نصف ساعة من وقتكم قبل التنصيب الرسمي ، فان هذا الطاقم سيكون سعيدا لمقابلتكم متى شئتم . وأنا لا أستطيع الآن ذكر الاسماء لأسباب تدركونها ولا شك ، ولكن اذا كان هذا الموضوع يهمكم ، فأنا على استعداد لأن أقابلكم أينما تكونون لترتيب هذا الاجتماع . انني مسافر الى اوروبا يوم الثلاثاء الواقع في ٢٨ تشرين الثاني ، وسأعود في ١٥ كانون الاول حيث أكون تحت تصرفكم .

« لقد كان شرفا كبيرا لي أن خضت حملة الرئاسة لصالحكم ، وأعتقد

بأن أمريكا والحزب الديموقراطي قد كسبا بشخصكم رئيسا سيترك أثره في التاريخ .

« مع أطيب تمنياتي .

المخلص

« توماس دود »

جاء رد الرئيس لبقا ، الا أن المسألة بقيت تراوح في مكانها ، وقد كان هذا متوقعا لأن الرئيس كينيدي كان يتبنى أفكارا معينة ثابتة فيما يتعلق بمسائل التسليح النووي ، وقنبلة النيوترون لم تجد مكانها بطبيعة الحال .

كانت هذه الافكار وآراء المعاونين والمستشارين الجدد مناقضة تماما لافكار ادارة الرئيس أيزنهاور ولما يفكر فيه السوفييت كما ظهر فيما بعد . فبينما كانت سياسة أيزنهاور تعتبر الاسلحة النووية التكتيكية قابلة للاستخدام لاغراض عسكرية بشكل يمكن أن تكون معه بمثابة حصن يحمي أوروبا ، كانت فلسفة كينيدي تجد تمييزا جذريا بين هذه الاسلحة والاسلحة التقليدية . وقد عبر عن ذلك « الان انتوفن » ، المشرّع الرئيسي لاستراتيجية «مكنامارا » بقوله :

« من بين التغييرات السياسية الاساسية التي كانت تسعى لتحقيقها ادارة كينيدي عام ١٩٦١ ، الاقلال من أهمية الاسلحة النووية فيما يتعلق بالردع والدفاع ، وتدعيم أهمية الاسلحة التقليدية ، وخاصة بالنسبة لحلف شمال الاطلسي » .

كذلك تابع « ليندن جونسون » على نفس المنوال فقال : « اياكم أن تنخدعوا . فالسلاح النووي ـ التقليدي غير موجود . خلال السنوات العشرين الخطرة التي انقضت ، لم يتجرأ أحد على استخدام الذرة ضد أي كان ، لأن في ذلك قرارا سياسيا في منتهى الخطورة » .

في هذا الجو السياسي الذي أدار ظهره لفلسفة أيزنهاور ، كان من المستحيل تدعيم أهمية الاسلحة النووية التكتيكية مهما كان نوعها . وقد قال

« كينيدي » عندما كان لا يزال عضوا في مجلس الشيوخ : « مما لا شك فيه أن استخدام الاسلحة النووية المصغرة سيؤدي حتما الى تصعيد آلي في حجم القنابل المستخدمة حتى الوصول الى الدمار الشامل » .

لذلك تم التخلي عن كافة التدابير المتخذة لادخال الاسلحة النووية في تنظيم القوات البرية . فالتحول قد حدث ، ونظرية « **الرد المرن** » قد أخذت طريقها الى التطبيق . بالنسبة لي ولأصدقائي ، كان هذا يعني اجتياز الصحراء ، والذي سيستغرق حوالي خمسة عشر عاما ...

* * *

(٤) - النقاش الممل يستمر

هكذا تقرر مصير الاسلحة النووية التكتيكية من قبل أعلى المستويات . صحيح أن المعركة لم تتوقف نهائيا ، الا أنه كتب لها الفشل مسبقا الى حين .

عاد عضو مجلس الشيوخ « دود » الى الهجوم ، حيث بعث برسالة جديدة الى الرئيس يرجوه فيها الاستماع الى محاضرتي . اتبعت الرسالة طريق التسلسل لتقف في مكتب مساعده لشؤون الامن القومي . علم « دود » بذلك فأعطى نسخة لبوب كينيدي ، شقيق الرئيس ، الذي سلمها بدوره لأخيه . الا أن شيئا لم يحدث .

نجح « دود » أخيرا في تنظيم محاضرات متكررة في الكونفرس بمساعدة « هنري جاكسون » ، رئيس لجنة التسلح في اللجنة المشتركة للطاقة الذرية .

من جهة البنتاغون ، ورغم القناعات الجديدة للادارة المدنية ، كانت هناك قناعة متزايدة بضرورة تطوير قنبلة النيوترون ، أو استئناف التجارب على الاقل . وهكذا أجمع كل من رئيس هيئة الاركان العامة للقوات المسلحة ورؤساء أركان القوات الثلاث ومدير الابحاث والتطوير في البنتاغون ، الدكتور « هارولد براون » ، على ضرورة المضي قدما في هذا المشروع . بعد ثلاث سنوات من حملة مستميتة ، أصبح التكتيكيون والتكنيكيون الامريكيون متفقين في هذا المجال ، الا أن جهودهم ظلت تصطدم بالسد المنيع الذي أقامه السياسيون المحيطون بالرئيس جون كينيدي ووزير دفاعه مكنامارا .

نتيجة المحاضرات التي القيت أمام الكونفرس باشراف عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون ، استدعي « غلين سيبورغ " ، الرئيس الجديد

للجنة الطاقة الذرية ، لكي يدلي برأيه في الكونفرس . الا أنه كان قد قرر التزام جانب الحياد حول هذا الموضوع ، وقد نجح في ذلك تماما . عندما سئل عن أهمية الاشعاع الداخل في الارض نتيجة امتصاص النيوترونات ، تملص « سيبورغ » من السؤال مدعيا بأنه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، رغم أنه تسلم مؤخرا جائزة نوبل لاعماله في هذا المجال . عندئذ ، طلب الي أن أتولى الاجابة ففعلت بكل سرور .

كان تأثير هذه المحاضرات على هنري جاكسون كبيرا لدرجة أنه قام بتوجيه رسالة للرئيس كينيدي يبين فيها أهمية قنبلة النيوترون وعلاقتها بتجميد التجارب النووية ، ولكن دون أية نتيجة .

في تلك الفترة ، ألقيت عدة محاضرات على أعضاء بارزين من ادارة الرئيس كينيدي . فقد حضر مرة « روزويل جيلباتريك » ، معاون وزير الدفاع ، بتحريض من الجنرال « بيرنارد شريفر » ، فأبدى اهتماما كبيرا قام بعده بعرض الموضوع على « مكنامارا » دون جدوى .

كذلك استمع الي « ماك جورج بوندي » ، مساعد الرئيس لشؤون الامن القومي ، الذي استخدم نفس الحجة التي يتذرع بها كينيدي ومكنامارا ، وهي أن استخدام السلاح النووي التكتيكي ، من أي نوع كان ، لا بد أن يؤدي الى التراشق النووي الاستراتيجي .

عين الجنرال « ماكسويل تايلور » ، رئيس الاركان السابق ، مستشارا خاصا في البيت الابيض . استمع الى محاضرتي فأبدى اعجابه بالمشروع ووعد بأنه سيبذل قصارى جهده لكي يأخذ الافضلية التي يستحقها نظرا لاهميته الكبرى . كذلك طلب مني متابعة تنفيذ البرنامج الموضوع واعلامه عن أية صعوبات تصادفني . فيما بعد ، حاولت مقابلته أكثر من مرة دون أية جدوى ...

استطاع « بيرنارد شرايفر » تأمين مقابلة بيني وبين السيد « جيمس فيسك » ، رئيس الوفد الامريكي الذي كان يتفاوض مع الروس في جنيف حول

معاهدة حظر التجارب النووية . كان السيد « شرايفر » يأمل من « فيسك » ، الواسع الاطلاع على المسائل النووية ، أن يتقبل المشروع ايجابيا ويدعمه لدى المحيطين بالرئيس كينيدي . الا أن « فيسك » أجاب بأنه يتمنى أن تتوقف التجارب النووية نهائيا ، ولو تمت التضحية بانجازات جديدة كقنبلة النيوترون . عندئذ أيقنت أن سياسة الرئيس كينيدي تضع مراقبة التسلح ووقف انتشار الاسلحة النووية قبل أي اعتبار سياسي أو وطني أو دولي .

رغم ذلك كله ، استمرت حملتنا الصليبية طوال صيف عام ١٩٦١ ، سواء في الكونغرس أو في الاوساط المختلفة من الادارة . علاوة على ذلك حاول أنصار قنبلة النيوترون اقناع المهزومين في الانتخابات الاخيرة .

استطاع الاميرال « راد فورد » ، الذي كان متحمسا للمشروع ، تأمين مقابلة لي مع « ريتشارد نيكسون » أثناء مروره في واشنطن . تمت هذه المقابلة في الفندق الذي أقام فيه ، حيث أبدى حماسا شديدا وأظهر معرفة مدهشة بمسائل التسلح النووي التكتيكي وموضوع وقف التجارب وانعكاساته . أيقنت آنذاك من ردود فعله أنه كان لا بد أن يوافق على المشروع لو قدر له الفوز في الانتخابات . حاول « راد فورد » دفعه لاتخاذ موقف علني حول قنبلة النيوترون وتجميد التجارب النووية ، الا أن « نيكسون » لم يقبل بذلك فيما بعد .

كذلك تمكن « لويس ستروس » من تقديمي للرئيس السابق أيزنهاور الذي ظل متحفظا لانه ما زال متأثرا بفلسفته السابقة التي تعتمد أساسا على الردود الانتقامية المكثفة ولا تؤمن بالضربات التكتيكية المحدودة .

بعد ذلك بقليل ، وأثناء مروري بجزر هاواي ، قابلت الاميرال « هربرت هوبود » ، قائد أسطول المحيط الهادي والمعاون السابق للسيد « فوستر دالس » ، الذي أخبرني أن هذا الاخير كان يسعى لتجديد الترسانة النووية الامريكية ، وأنه اقتنع قبل وفاته بضرورة وجود أسلحة أدنى من الاسلحة الاستراتيجية لتأمين الردع الفعال . ولا شك في أن قنبلة النيوترون كانت تفي

تماما بهذا الفرض . لذلك أبدى « هوبوود » أسفه لأن « دالس » توفي قبل أن يستطيع تغيير أفكار الادارة آنذاك .

كذلك عرضت مشروعي على الاميرال « هاري فيلت » ، القائد الاعلى لقوات المحيط الهادي ، وضباط أركانه . بعد الاستماع الي سألني : ما هو موقف واشنطن ؟ وعندما أخبرته بما ألاقيه من معارضة شديدة من قبل ادارة الرئيس كينيدي ، طلب مع ذلك من أركانه ادراج هذا المشروع في الطلبات الموجهة الى هيئة الاركان المشتركة . الا أن كل هذا بقي دون نتيجة أيضا .

* * *

(٥) - نيكيتا خروتشوف يظهر على المسرح

عند ذلك دخل السوفييت في الجدل حول قنبلة النيوترون . ففي رأيهم أن قتل الناس دون احداث خسائر في العتاد يعتبر رمزا للاأخلاقية الغربية . وأمام مؤتمر الحزب الشيوعي المنعقد في بوخارست ، صرح خروتشوف بما يلي :

« يتزايد الآن حديث رجال الدولة والقادة العسكريين في الولايات المتحدة الامريكية عن اعداد قنبلة النيوترون ، التي تقتل البشر وتوفر الممتلكات المادية والعتاد . نعم أيها الرفاق ، هذا هو ما يفكر به هؤلاء الناس . انهم يفكرون كاللصوص الذين يريدون قتل رجل دون تلويث ثيابه بالدماء لكي يتمكنوا من سرقة ملابسه . هذه هي قنبلة النيوترون ، وهذه هي الطبيعة الوحشية لممثلي الامبريالية . هل هذه شريعة انسانية ؟ ان الانسان ليس له أية قيمة بالنسبة لهم . فكل ما يهمهم هو السلب والبحث عن المنفعة ، وهذا ما يدفع الامبرياليين لارتكاب أبشع الجرائم » .

« ان قنبلة النيوترون تحقق أحلام كافة قطاع الطرق : نسف المصرف وحراسه مع ابقاء الخزنة سالمة . تقوم هذه القنبلة بقتل السكرتيرات أمام الآلات الكاتبة ، والعلماء أمام حواسبهم ، ورجال الاعمال في مكاتبهم ، دون اتلاف الاضابير . انها تقتل العاملين في مواضعهم دون أن تتوقف الآلات » .

في شهر أيلول من عام ١٩٦١ ، وضع الاتحاد السوفييتي حدا للسبب الرئيسي للجدل الدائر حول قنبلة النيوترون ، وذلك باستئنافه التجارب النووية بصورة مفاجئة ، وبأضخم سلسلة من التجارب المحضرة جيدا خلال فترة التجميد التي استمرت ثلاث سنوات .

وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة لاستئناف تجاربها هي الاخرى . بسبب الافضلية التي منحتها لجنة الطاقة الذرية لقنبلة النيوترون وكذلك التقدم النظري الذي أحرز في « ليڤرمور » ، بدأت التجارب سنة ١٩٦٢ لكي تحقق نجاحا باهرا في عام ١٩٦٣ . بعد ذلك طلبت لجنة الطاقة الذرية من العسكريين اجراء تقييم عملياتي للسلاح الجديد .

رغم الصدمة التي سببها الاستئناف المفاجيء للتجارب النووية من قبل السوفييت ، التقطت ادارة الرئيس كينيدي أنفاسها واستعادت هدوءها بسرعة ، حتى أنها بدأت تطالب بتوقيع معاهدة لوقف التجارب النووية نهائيـا ، مع الاستعداد للتنازل التدريجي فيما يتعلق باجراءات التفتيش والتحقق على الارض السوفييتية . هنا أخذ القلق يستبد بالكونغرس ، كما عاد عضو مجلس الشيوخ « دود » للهجوم من جديد :

« أعتقد بأنني كنت أول عضو في الكونغرس يناقش علنا قدرة القنبلة النيوترونية . وقد فعلت ذلك ضمن اطار البحث في مسألة التجارب النووية . . . آنذاك ، أوصى رؤساء الاركان باعطاء أفضلية لتطوير قنبلة النيوترون ، كمـا أعجبت اللجنة المشتركة في الكونغرس بالمشروع لدرجة ألحت معها على الرئيس لكي يدعمه .

« ان جهلنا تام بالانجازات السوفييتية في هذا المجال ، وأغلب الظن أنها ستظل مجهولة لأن قوة انفجار هذه القنابل أضعف من أن تكتشف .

« من دواعي القلق الشديد أن يسبقنا السوفييت في صنع هذا السلاح الجديد ، الذي يحقق أهدافهم بشكل مثالي ، لأنه يسمح لهم بالاستيلاء على أوروبا الغربية سالمة دون تدمير بدلا من تحويلها الى رماد بواسطة القنابل الذرية أو الهيدروجينية أو حتى بواسطة المتفجرات الكلاسيكية كما حدث خلال الحرب العالمية الثانية .

« على الرغم من المزايا الواضحة لقنبلة النيوترون في الترسانة التكتيكية الحالية ، ورغم القناعة الكافية بأن السوفييت يعملون في هذا المضمار منذ

مدة ، فقد لقي تطوير هذه القنبلة لدينا معارضة شديدة من قبل المستشارين العلميين للرئيس وغيرهم من جهاز الادارة .

« حسب المنطق هذا ، ليس من المفيد تحديث الاسلحة النووية التكتيكية لأن الحرب المقبلة ستحل بواسطة الاسلحة التقليدية أو النووية الاستراتيجية والثقيلة .

« أما أنا ، فأعتقد بخطأ النظرية القائلة بأن استخدام الاسلحة النووية التكتيكية الصغيرة كقنبلة النيوترون في ساحة المعركة يؤدي بصورة آلية الى التصعيد نحو التراشق الحروري النووي الشامل .

« لنفترض أننا اكتفينا بالاسلحة التقليدية بينما استخدم السوفييت قنابل النيوترون ، عندئذ ، لو كنا نملك نفس السلاح لامكننا الرد بالمثل ، والا فلا بد من الاختيار بين الاستسلام أو الدمار الشامل .

« ان منطق هذا الاقتراح يبدو لي بديهيا لدرجة لا أستطيع معها ادراك المغزى أو القصد من انكار أهمية القنبلة النيوترونية ، سواء بالنسبة للمفاوضات حول وقف التجارب النووية أو بالنسبة لتفكيرنا الاستراتيجي بالذات » .

في اليوم التالي ، خرجت صحيفة « واشنطن بوست » بهجوم عنيف على عضو مجلس الشيوخ « دود » ، كما أوعزت الادارة للسيد « أدريان فيشر » بالرد على « دود » ، فكتب يقول :

« فيما يتعلق بقنبلة النيوترون ، الذي يعتبر صنعها غير مضمون ، فان مصلحة الولايات المتحدة تكمن في منع الاتحاد السوفييتي من امتلاك هذا السلاح » .

عندئذ رد « دود » على ذلك بطريقته الخاصة ، متهما الادارة باتباع فلسفة انهزامية :

« مما لا شك فيه أن هذه الفلسفة ، التي تعلق آمالها على جمود العلم وتسير بعكس التجربة الانسانية ، هي فلسفة خط ماجينو في العصر النووي ... من يستطيع انكار أن قنبلة النيوترون لا تغير ميزان القوى ؟ ان الأمة التي

تمتلكها تستطيع ابادة الجيوش المعادية دون خطر التساقطات ودون تدمير الممتلكات الصديقة أو العدوة . أما تلك التي لا تمتلكها ، فستكون ملزمة بالاختيار بين الاستسلام أو الدمار الشامل » .

في زحمة هذه الحملة الكلامية ، كشف « فيشر » النقاب عن امتلاك الولايات المتحدة لقنبلة النيوترون ، فانفجرت فضيحة كبرى حول افشاء أسرار ذرية من قبل موظف كبير ، ولكن الضجة ما لبثت أن أخمدت داخل الكونغرس والولايات المتحدة .

بعد نجاح التجارب في عام ١٩٦٣ ، جاءت تقارير العسكريين كلها ايجابية لصالح قنبلة النيوترون . الا أن هذه الاستنتاجات لم تكن في الاتجاه الذي يريده « مكنامارا » وطاقمه ، للاسباب السياسية التي أعلنها « فيشر » . لذلك عمد وزير الدفاع الى اعادة تقييم الموضوع من قبل خبرائه المقربين ، فأعلن مكتب الدراسات والتحاليل أن هذه القنبلة لا تناسب من حيث نسبة التكاليف والفعالية بالمقارنة مع النماذج الاخرى المتوفرة . وهكذا قدر لهذا السلاح أن يظل مدفونا الى أجل غير مسمى بسبب سياسة الادارة الامريكية .

(٦) - عبور الصحراء

طوال ما يقرب من خمسة عشر عاما ، من ١٩٦٣ حتى ١٩٧٧ ، لم يعد الامريكيون يسمعون شيئا عن قنبلة النيوترون . الا أن الجدل بقي محصورا سرا داخل البنتاغون ولجنة الطاقة الذرية . أما أنا ، فقد أجبرت على الصمت وأفهمت بوضوح أن علي التوقف عن هذه الحملة التي لا تعجب واشنطن . بل وصل الأمر أبعد من ذلك ، حيث اضطررت لترك مجال البحث العلمي في مؤسسة « راند كوربورايشن » لمدة بضع سنوات لكي أتفرغ لموضوع مكافحة حرب العصابات ، وهو مجال كانت مؤهلاتي متواضعه فيه . لذلك اقتصر نشاطي بالنسبة لمشروع قنبلة النيوترون ، طوال عشر سنوات ، على كتابة مقالات باسم مستعار في فرنسا ، بالاضافة الى بعض المباحثات والاتصالات مع أصدقاء أمريكيين وأجانب يؤيدون مفاهيمي ويدعمونها .

الا أن الافكار لا تموت ، بل تسير ببطء رغم المعارضة . لذلك كان لا بد لمشروع قنبلة النيوترون أن يعاود الظهور على السطح ولو بعد حين . ففي السنوات ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ ، عندما كان الامريكيون يطورون سلاحا مضادا للصواريخ ، عاد مفهوم النيوترون للظهور كأفضل وسيلة ، بواسطة الاشعاعات المركزة ، لتدمير الرؤوس النووية المهاجمة . وهكذا ظهرت مثلا الرؤوس المسماة (سبرينت) ذات الاشعاع المعزز ، ولكن في المجال الاستراتيجي هذه المرة ، وهو مجال حيوي جدا لانه يتعلق بالدفاع عن الولايات المتحدة ، الامر الذي كان يستحق أفضلية أولى بطبيعة الحال . كذلك ، وعلى الرغم من كافة الاعتراضات على الاسلحة التكتيكية ، بقيت مخزونات حلف الاطلسي منها في

اوروبا كافية بفضل الدفع الذي أخذته في عهد الرئيس أيزنهاور . فقد كان الاوروبيون يرون فيها الحصن المنيع الوحيد ضد أي هجوم للجيش الاحمر . الا أن هذه الاسلحة التكتيكية ، وعددها (٧٠٠٠) ، بقيت على حالها دون أي تطوير للاسباب الآنفة الذكر . في عام ١٩٧٣ ، اشتكى الجنرال « غود باستر » أمام الكونغرس من الاسلحة القديمة التي عليه أن يدافع بها عن اوروبا ، وطالب بتحديثها . في هذا الاطار ، عمد الجيش الامريكي (القوات البرية) ، وخاصة سلاح المدفعية ، الى المطالبة باستبدال القذائف النووية من عيار ١٥٥ و ٢٠٣ مم ، التي مضى عليها ما يقرب من عشرين عاما ، بوسائط أفضل وأحدث . أثناء النقاش الذي دار في الكونفرس ، لاحظ أعضاء المجلس أن مثل هذه الاسلحة التكتيكية كانت باهظة التكاليف ولم تعد تفي بالفرض المطلوب . لذلك أثاروا مسألة التكنولوجيا الجديدة لكي يرفضوا تخصيص الاموال التي طلبتها المدفعية. عندئذ ، اضطر الجيش الامريكي للعودة الى الاسلحة ذات الاشعاع المعزز طالما أن هذا يعجب الكونفرس الذي كان قد اقتنع أخيرا بالفكرة التي بقيت ادافع عنها بعناد طوال اثنتي عشر سنة .

وهكذا اتخذ قرار في عام ١٩٧٥ بتزويد حلف شمال الاطلسي بصواريخ « لانس » وبالقذائف ٢٠٣ مم ذات « الاشعاع المعزز » ، بل قام الرئيس « فورد » بتوقيع الامر القاضي ببدء الصناعة في عام ١٩٧٦ ، كما طلب المصادقة على الاموال المخصصة في ميزانية عام ١٩٧٧ .

لو استمر الوضع على هذا النحو ، لكان من الطبيعي أن تجد قنبلة النيوترون طريقها الى ترسانة حلف شمال الاطلسي . الا أن الفضيحة التي قامت ، أدت الى بدء الجولة الثانية من هذا الجدل الكبير .

(٧) - الجولة الثانية - ١٩٧٧ ؟

من المعروف أن الصحفيين فضوليون بطبيعتهم . لذلك كان لا بد أن يتسرب شيء من الاحاديث السرية التي دارت في الكونفرس مؤخرا نتيجة اهمال أحد موظفي « وكالة أبحاث الطاقة وتطويرها » ، التي حلت محل لجنة الطاقة الذرية ؛ فكتب « والتر بينكس » ، المحرر في صحيفة « واشنطن بوست » ، يقول تحت عنوان مثير : « قنبلة النيوترون مموهة في ميزانية وكالة أبحاث الطاقة وتطويرها » :

« ستبدأ الولايات المتحدة انتاج أول سلاح تكتيكي أعد خصيصا لقتل البشر بواسطة النيوترونات بدلا من تدمير المنشآت العسكرية بواسطة الضغط والحرارة . وهكذا أدرجت المخصصات اللازمة للصاروخ (لانس) ، ذي الاشعاع المعزز ، ضمن مبلغ الـ (٢ر١٠) مليار دولار ، الذي طلبته وكالة أبحاث الطاقة وتطويرها من الكونفرس تحت بند مخصصات لاعمال ذات نفع عام . يعتبر هذا السلاح الجديد تطبيقا عمليا لنظرية ما يسمى بقنبلة النيوترون ، التي يعمل من أجلها علماء الحكومة منذ سنوات عديدة .

« وفق القواعد المتعلقة بالاسلحة النووية ، يجب على الرئيس بالذات أن يعطي الامر النهائي المتعلق ببدء الانتاج . وقد علمنا من مصادر حسنة الاطلاع أن الرئيس فورد قد وقع الامر المتعلق بانتاج رأس الصاروخ لانس » .

بعد ذلك بفترة وجيزة ، نشرت الـ « واشنطن بوست » مقالا هاجمت فيه هذا الاتجاه في التسلح تحت عنوان « سلاح جديد لسنا بحاجة اليه » ، ذكرت فيه أن قنبلة النيوترون يمكن أن تعتبر نوعا من السلاح الكيميائي ، وأن

العسكريين ينظرون اليها كسلاح صغير يمكن استخدامه دون خوف من وقوع حرب شاملة . في نهاية المقال ، طالبت الصحيفة الرئيس « كارتر » بأن يقول « لا » لقنبلة النيوترون .

الحق يقال أن مقال الـ « واشنطن بوست » لاقى نجاحا فوريا : فقد عاد الجدل على أشده ، تماما كما حدث منذ خمسة عشر عاما ، حيث اقترح عضو مجلس الشيوخ « هاتفيلد » سحب مخصصات الصاروخ لانس من الميزانية العسكرية لوكالة أبحاث وتطوير الطاقة . كذلك دخلت الصحافة كلها في هذا الجدل مع اعطائه أهمية أكبر مما حدث في عام ١٩٦٠ ، كما دخل الاتحاد السوفييتي في المعركة بطبيعة الحال ، مهاجما « البربرية الامريكية » ومكررا نفس الحجج التي ذكرها خروتشوف . في ٢٢ حزيران ، وفي جلسة مغلقة ، صوتت لجنة المخصصات في مجلس الشيوخ على اقتراح عضو المجلس « هاتفيلد » ، الذي رفض بعشرة أصوات مقابل عشرة ، ولكن « هاتفيلد » لم يعتبر نفسه مهزوما .

في ٢٤ حزيران ، عمد « والتر بينكس » نفسه ، الذي وجد في قنبلة النيوترون مجالا لتحقيق مكاسب صحفية شخصية ، الى القاء الزيت على النار ، معلنا أن وزارة الدفاع تسعى سرا لادخال الاشعاع المعزز على قذائف المدفعية ، وأن المخصصات من أجل صناعة القذيفة النيوترونية من عيار ٢٠٣ مم قد أخفيت أيضا ضمن ميزانية وكالة أبحاث وتطوير الطاقة . ثم اردفت الـ « واشنطن بوست » تقول :

« وهكذا لن يكتفي البنتاغون بوضع قنبلة النيوترون في الصاروخ لانس الذي يبلغ مداه ٥٦ ميلا ، بل كذلك في القذائف التي تطلقها المدفعية المنتشرة في الامام ... مما لا شك فيه أن هذا السلاح سيجعل حلفاءنا الاوروبيين يهملون املاء ثغرات حلف الاطلسي فيما يتعلق بالقوات الكلاسيكية ، كما أنه سيسهل عملية الرد النووي ويعزز الوهم بأن التراشق النووي المحلي لن يؤدي بالضرورة الى الحرب الشاملة » .

في هذه المرة ، وخلافا للمرة السابقة ، وجد البيت الابيض نفسه منجرفا

في هذه الزوبعة ، حيث أعلن الرئيس كارتر على لسان ناطقه الرسمي « جودي باول » ما يلي :

« حتى الآن ، لم يتخذ أي قرار نهائي فيما يتعلق بانتاج هذا السلاح ، لأن القرار معلق بانتظار الدراسة السنوية لمسألة السلاح التكتيكي النووي ، والتي ستجري هذا الخريف . عند ذلك ، سنعلمكم بقرار الرئيس في هذا المجال » . بهذا البيان ، أراد الرئيس أن يبقي باب الخيار مفتوحا أمامه على مصراعيه ...

في الاول من شهر تموز ، اجتمع مجلس الشيوخ في جلسة مغلقة ـ وهو أمر نادر الحدوث ـ لمناقشة موضوع قنبلة النيوترون ، حيث تبنى بأغلبية ضئيلة (٤٣ صوتا ضد ٤٢) التعديل الذي تقدم به عضو المجلس « جون ستانس » ، والقاضي بتأجيل تحديد المخصصات حتى صدور قرار الرئيس .

استعرت نار الجدل في كل مكان ، واحتل هذا الموضوع مكان الصدارة في تعليقات الصحافة التي اشترك فيها السياسيون والعلماء والعسكريون ، كما قامت مظاهرات هستيرية ولطخت جدران كل من البنتاغون ومقر قيادة وكالة أبحاث وتطوير الطاقة بالدماء . كذلك ضاعف السوفييت جهودهم لتأجيج النار ، فكتبت وكالة تاس تقول : « كيف يمكن لانسان أن يدعي لنفسه بطولة الدفاع عن حقوق الانسان وهو يشهر قنبلة النيوترون التي تهدد حياة ملايين الناس ؟ في الحقيقة ، ليست أيمان كارتر حول حبه للانسانية سوى كلمات سفسطائية ، ولكن قنبلة النيوترون واقع قائم ودليل قاطع » .

ازاء هذه الضجة العالمية ، قرر الرئيس كارتر الاعلان عن وجهة نظره ، فكتب الى عضو مجلس الشيوخ « ستانس » ردا على رسالة كان هذا الاخير قد وجهها اليه ، تماما كما فعل « دود » في عهد الرئيس كينيدي . في اليوم التالي ، عقد مؤتمرا صحفيا أذيع بالتلفزيون في كافة أنحاء البلاد أعلن فيه « أن قنبلة النيوترون ستكون من جملة الخيارات في مجال الاسلحة النووية . أما انتقادات السوفييت ، فهي مغلوطة وفي غير محلها » .

أما رسالته الموجهة الى « ستانس » ، فنوردها فيما يلي نظرا لاهميتها :

البيت الابيض في تموز ١٩٧٧

« الى عضو مجلس الشيوخ ستانس :

« ردا على رسالتك المؤرخة في ٦ تموز ١٩٧٧ ، أود أن أطلعك على رأيي فيما يتعلق بالاسلحة ذات الاشعاع المعزز .

« لقد طلبت من وزارة الدفاع أن تقدم لي دراسة حول هذا الموضوع حتى تاريخ أقصاه ١٥ آب ١٩٧٧ . وستكون هذه الدراسة مرافقة بدراسة أخرى حول النتائج المحتملة لمراقبة التسلح . وفي نيتي أن أتخذ قرارا نهائيا بعد وصول هذه الوثائق ؛ فاذا كان ايجابيا ، سأعلم بذلك الكونفرس في حينه .

« بانتظار ذلك ، أعدت لي وزارة الدفاع دراسة مؤقتة حول هذه الاسلحة التي أعتقد بأنها تلبي احتياجاتنا الدفاعية . لذلك أطلب من الكونفرس المصادقة على المخصصات المقترحة .

نحن لا نتحدث هنا عن سلاح من نوع جديد ، بل عن تحديث الاسلحة النووية بشكل عام . ففي حالة انعدام الاتفاقيات المرضية للحد من هـذا التسلح ، لا بد لنا من تحديث وتطوير ترسانتنا ، وخاصة بالنسبة لما يخدم ويدعم استراتيجية « الرد المرن » لحلف شمال الاطلسي وتعزيز قوتنا الرادعة . مما لا شك فيه أن الاسلحة النووية التكتيكية ، بما فيها الخاصة بساحة المعركة ، قد ساهمت بقسط وافر في ردع أي عدوان أو نزاع مسلح في أوروبا . وأعتقد بأن علينا أن نحافظ على باب الخيار مفتوحا من أجل تطوير هذه الترسانة وتحديثها . ليست هذه الاسلحة استراتيجية وليس لها أية علاقة بمفاوضات « سالت » .

« يجب التسليم بأن حلف شمال الاطلسي هو حلف دفاعي يمكن أن يضطر للقتال على أراضيه . لذلك يجب أن يظل المعتدي أمام الشك حول استخدام الاسلحة النووية ضد أنساقه الاولى . في هذا المنحى بالذات ، نجد أن الاستخدام المحدود والاصطفائي للقوة ــ التي أتاحتها لنا الاسلحة ذات الاشعاعات المعززة ــ يقدم لنا خيارا مغريا .

« وهكذا نستطيع القول أن هذه الاسلحة قد تعزز الردع ، ولكن اذا فشل هذا الردع ، فانها تلبي اهتمامين أساسيين :

ــ أولهما تعزيز قدرة حلف الاطلسي وتكبيد المعتدي خسائر عسكرية كبيرة ،

ــ وثانيهما الحد من الاضرار والخسائر خارج منطقة الهدف ، سواء للقطعات الصديقة أو المدنيين .

« ان قرار استخدام أسلحة نووية ، مهما كان نوعها ، بما في ذلك ذات الاشعاعات المعززة ، سيبقى في يدي وليس في أيدي قادة مسرح العمليات .

« من المؤكد أن قرار تخطي العتبة النووية سيكون أكثر القرارات مأساوية بالنسبة للرئيس . وأستطيع أن أؤكد لك بأن هذه الاسلحة الجديدة لن تجعل القرار أكثر سهولة . الا أن تعزيز الردع الذي تؤمنه ، سيجعل من شبه المستحيل خلق الظروف التي تتطلب اتخاذ مثل هذا القرار .

« لقد سألتني عن رأي حلفائنا في حلف شمال الاطلسي بالنسبة لهذه الاسلحة . أرسلت المعلومات المفصلة عنها وأسباب تطويرها الى قيادة هذا الحلف والى وزراء الدفاع في كانون الثاني من عام ١٩٧٦ . كذلك أيدت سلطات الحلف برنامج الاسلحة ذات الاشعاعات المعززة واعتبرتها ضرورية لتدعيم فعالية القدرة النووية التكتيكية لحلف الاطلسي .

« آمل أن تجد في هذه المعلومات الفائدة المرجوة واللازمة بالنسبة للجدل القادم حول هذه الاسلحة وتطويرها » .

المخلص

« جيمي كارتر »

* * *

كان من المفروض بعد هذا الموقف الايجابي الواضح من قبل الرئيس كارتر أن يتوقف الجدل أو تخف حدته على الاقل . ولكن شيئا من هذا لم

يحدث ، لأن المسألة قد عبرت الاطلسي وأثارت خلافات حادة في اوروبا . فعلى الرغم من كون الرسميين المدنيين والعسكريين في حلف شمال الاطلسي مؤيدين لقنبلة النيوترون ، ارتفعت الاحتجاجات في مختلف بلدان الحلف ، تؤججها وتذكيها الدعاية السوفييتية بطبيعة الحال .

بلغ الجدل أشده في ألمانيا الغربية أكثر من سواها لأن وضعها الجغرافي والاستراتيجي يجعل منها المسرح المميز المحتمل لانتشار الاسلحة النووية التكتيكية . لذلك رأينا السيد « هلموت شميدت » يدلي بالتصريح التالي منذ عام ١٩٦٢ : « طالما أن الدفاع عن أوروبا سيؤدي الى تدميرها ، فسيظل من الطبيعي ألا يسمح الاوروبيون باستخدام الاسلحة النووية على أراضيهم » . وفي عام ١٩٧٥ ، عندما أصبح « هلموت شميدت » مستشارا ، عمد بنفس هذه الرؤية الى توقيع كتاب أبيض عن الدفاع أعلن فيه أن الاسلحة النووية التكتيكية لا تعتبر أداة للحرب والقتال ، بل وسيلة لمنع الحروب تماما كالاسلحة الاستراتيجية :

« لا يهدف استخدام الاسلحة النووية الى الحصول على قرار عسكري بقدر ما يهدف الى ترك تأثير سياسي بقصد ارغام المهاجم على اعادة النظر في نواياه ، ثم الاقلاع عن العدوان والانسحاب » . بهذا كان ينسجم تماما مع فلسفة « الرد المرن » الامريكية الرسمية . على ضوء هذه النظرة ، لم يكن يمكن لقنبلة النيوترون (المقدمة كسلاح يسهل استخدامه) أن تلاقي ترحيبا حارا في صفوف الحزب الحاكم في جمهورية ألمانيا الاتحادية . لذلك أعلن السيد « ايغون بهر » ، الامين العام للحزب الاجتماعي الديموقراطي ومعاون « هلموت شميدت » ، أن قنبلة النيوترون هي رمز لانحراف الفكر الانساني ، وبرهان على أن البشرية تنحدر نحو الجنون . . .

أما المستشار ، فقد بقي محايدا عندما قال « بأن من السابق لأوانه اتخاذ موقف نهائي في الوقت الحاضر ، وان هذا النوع من الاسلحة النووية يثير مسائل نفسية واستراتيجية لا بد من توضيحها داخل حلف الاطلسي وفي علاقاتنا مع حلف وارسو » . وأما السيد « جورج ليبر » ، وزير الدفاع ، فقد نقض

تأكيد الجنرال « ألكسندر هيغ » القائل بأن جميع أعضاء حلف الاطلسي ، بما فيهم ألمانيا الاتحادية ، قد ساندوا قنبلة النيوترون بحماس ، فقال : « لا يحق لأي ألماني في بروكسل أن يدلي بمثل هذه التصريحات . وليس صحيحا القول بأن الالمان قد عبروا عن اهتمامهم بقنبلة النيوترون في اطار حلف شمال الاطلسي » .

على ضوء ردود الفعل هذه ، قرر الرئيس كارتر تأجيل قراره حتى الحصول على اجماع عام حول هذا الموضوع ... بالنسبة له ، كانت تلك حجة أو فرصة مناسبة لتأجيل قرار من شأنه تعكير جو مفاوضات « سالت » مع الاتحاد السوفييتي .

في مطلع كانون الاول من عام ١٩٧٧ ، أعلن وزير الدفاع « هارولد براون » ، بعد عودته من اجتماع وزراء الحلف في بروكسل ، أن الاوروبيين قد أصبحوا مستعدين للموافقة بعد اعادة التفكير في الموضوع ، وأن قرارا وشيكا سيتخذ . الا أن شيئا لم يتبدل ، باستثناء مستوى الاحتجاجات السوفييتية ، حيث عمد الرئيس « بريجنيف » عشية عيد الميلاد الى ارسال تحذير واضح سافر لحلف الاطلسي ، عندما حدد شروطه في صحيفة البرافدا بقوله : « اما أن تستبعد هذه القنبلة باتفاق متبادل ، أو سيجد الاتحاد السوفييتي نفسه مضطرا لصنع قنبلته الخاصة . قد تكون المسألة بسيطة بالنسبة لاولئك الذين يعيشون بعيدا عن أوروبا ، الا أن الامر يختلف كليا بالنسبة للاوروبيين الذبن يعيشون تحت سقف واحد ، وهذا أمر يسهل فهمه » ...

في اثر التصريح الاخير الذي أدلى به بريجنيف ، شن مجلس السلم العالمي ، المنعقد في « هلسنكي » ، حملة عنيفة لوضع قنبلة النيوترون كخارجة على القانون ، كما أصدر كتابا اعتبرها فيه « كسلاح يهدد الوفاق والانفراج الدوليين » . كذلك قامت ، بتحريض من الاتحاد السوفييتي ، سلسلة من المظاهرات في العديد من الدول الالمانية وبلدان أخرى ، أوروبية وغير أوروبية ...

أخيرا ، وتحت ضغط الكونغرس ، اضطر الرئيس كارتر ، في عام ١٩٧٨ ، لاتخاذ قرار يترك باب الخيارات مفتوحا ، حيث تصنع مركبات القنبلة من أجل الصاروخ « لانس » والقذيفة (٢٠٣) مم ، ولكن التركيب يؤجل حتى اشعار آخر . بهذا تصبح القنبلة النيوترونية سلاحا يمكن اشهاره لغايات سياسية كانتزاع تنازلات من السوفييت حول مراقبة التسلح على سبيل المثـــال .

« سام كوهين »

٢ - نبذة عن التقنية النووية

من الضروري أن نغوص الآن قليلا في المجال التقني لكي نفهم جيدا الفائدة العملياتية للقنبلة النيوترونية . سنتوخى بطبيعة الحال أن تكون هذه النبذة سطحية ومختصرة قدر المستطاع ؛ لذلك ستقتصر بشكل خاص على تأثيرات القنبلة بالمقارنة مع تأثيرات القنابل النووية الاخرى التي تعتبر تطويرا لها وتحسينا ملموسا لطاقاتها ، لأن قنبلة النيوترون هي قنبلة ذرية قبل كل شيء . ففي تأثيراتها العسكرية ، ليست ذات طبيعة مختلفة ، ولا شك في أن وصفها بأنها سلاح « أكثر شيطانية » من الاسلحة الاخرى اتهام باطل وسخيف . فهي بالنسبة لقنبلة هيروشيما كالسيارة « رينو » موديل ١٩٨٠ بالنسبة للرينو ١٩١٤ .

خلال الحرب العالمية الثانية ، صنعت في « لوس الاموس » قنبلتان تعملان على مبدأ انشطار الذرة وهما : « ليتل بوي » في حدود ١٠ - ١٥ كيلو طن ، ألقيت على هيروشيما ، و « فات مان » ، في حدود ٢٠ - ٢٥ كيلو طن ، ألقيت على ناغازاكي . كان مبدأ هذين السلاحين يستند الى الحصول على كتلة فوق الحرجة لاطلاق سلسلة من ردود الفعل . بالنسبة لـ « ليتل بوي » ، تم الوصول الى هذه الظاهرة نتيجة جمع كتلتين تحت الحرجتين من اليورانيوم ٢٣٥ ، بينما تلخصت طريقة الـ « فات مان » بضغط كتلة تحت - الحرجة من البلوتونيوم . وقد أطلقت على هذه الطريقة تسمية « انبجاس » .

تظهر الطاقة الناجمة عن ردود فعل الانشطار بثلاثة أشكال :

١ - الطاقة الحركية لجزيئات الانشطار - النواتان المشكلتان نتيجة انشطار نواة ذرة اليورانيوم أو البلوتونيوم .

٢ ـ الاشعاع النووي (شعاع بيتا وغاما) الناجم عن أجزاء الانشطار المرتفعة الاشعاع .

٣ ـ بث خاطف لاشعة غاما وللنيوترونات .

تنقل أجزاء الانشطار ٨٥٪ من الطاقة الاجمالية . ولما كانت هذه الجزيئات ذات شحنة كهربائية عالية جدا ، فان محاركها تكون قصيرة جدا في مادة القنبلة . لذلك تتباطأ حركتها بسرعة كبيرة كما يتم امتصاص طاقتها من قبل القنبلة نفسها . هنا تنحصر كمية هائلة من الطاقة داخل حيز صغير جدا ، وترتفع الحرارة بنسب خيالية ثم تنتشر في الهواء المحيط ، الذي يولد موجة من الضغط الزائد في الجو ويبث طاقة حرورية تشبه الطاقة الحرورية الشمسية . ويمكن القول بشكل عام أن الضغط الزائد ، بالنسبة لقنبلتي هيروشيما وناغازاكي ، يساوي ٥٠٪ من الطاقة الاجمالية ، بينما يصل التأثير الحروري الى ٣٥٪ .

يبقى اذن ١٥٪ ، تذهب ١٠٪ منها في البث الاشعاعي لناتج الانشطار الذي يكون له نصف عمر يتراوح بين جزء من الثانية وعشرات السنين . أما الاجزاء التي لها نصف عمر أطول فتساهم في التساقطات المشعة : السترونيوم ٩٠ والسيزيوم ١٣٧ هما من العناصر الاكثر تعبيرا عن التأثيرات الراديولوجية على المدى البعيد .

بالنسبة للـ ٥٠٪ الباقية ، بشكل أشعة غاما ونيوترونات ، فتنشرها النوى في لحظة الانشطار . هذه المواد المنتشرة ، بالاضافة الى أشعة غاما لاجزاء الانشطار ذي نصف العمر ، فتسمى الاشعاع النووي الاولي ، أو الاشعاع المباشر . نتيجة الحساسية الزائدة للكائنات البشرية تجاه هذه الاشعاعات ، فهي التي تشكل القاعدة الرئيسية للتأثيرات المضادة للاشخاص للسلاح النووي .

سببت القنبلتان ، اللتان ألقيتا على اليابان ، دمارا ضمن نصف قطر يبلغ ١٦٠٠ م ، كما نجمت عنهما أضرار ذات مغزى حتى ٢٤٠٠ م . على ضوء درجة حماية السكان ، حدثت خسائر ناجمة عن انهيار الابنية أو بسبب تطاير

الشظايا والحروق الناجمة عن الوهج الحروري أو الحرائق التي خلّفها الانفجار . على مثل هذه المسافات من نقطة الصفر ، كانت الخسائر الناجمة عن الاشعاعات ضعيفة نسبيا ، لأن الكثافات كانت أدنى بكثير من الجرعات الخطرة . فقد كان بامكانها احداث خسائر مباشرة حتى ١٢٠٠ م ، الا أن الاشعاعات المباشرة لم تكن السبب الرئيسي لمذبحة اليابانيين الذين فوجئوا بـ « ليتل بوي » ، وذلك عائد للدمار المادي الشامل الذي أحدثته التأثيرات الاخرى للانفجار .

في عام ١٩٥٤ ، وضع في أوروبا أول مدفع ذري من عيار ٢٨٠ ملم ؛ كان هذا السلاح التكتيكي يحتوي على متفجر نووي شبيه جدا بـ « ليتل بوي » . أما قطره الصغير ، فكان يسمح لمعظم النيوترونات بالتسرب في الجو ، بينما في قنبلة « فات مان » ، التي تعمل بالانبجاس ، فقد كان على النيوترونات أن تخترق ما يعادل ٦٠ سم من المتفجر ، الامر الذي يؤدي الى تلطيف تأثيرها بدرجة كبيرة .

ان استخدام مثل هذا السلاح في أوروبا ، بجوار المناطق المأهولة ، كان لا بد أن يحدث خسائر هائلة بالارواح ودمارا كبيرا نتيجة هيمنة الضغط والحرارة . أما للدفاع ضد الهجمات المدرعة بعيدا عن المناطق المأهولة ، فان تأثير الضغط على الدبابات يظل أضعف بكثير ، وذلك بعكس تأثير النيوترونات التي تخترقها بسهولة تامة .

لا بد هنا من أن نشرح قليلا كيف أن الدبابة ، التي يتحمل تصفيحها الصدمة والضغط الشديد ويحمي تماما الطاقم الراكب من الوهج الحراري ، تظل عرضة لاختراق النيوترونات دون مقاومة تذكر . صحيح أن الشرح معقد جدا ، ولكننا سنحاول تبسيطه قدر المستطاع : ان النيوترونات عبارة من مقذوفات صغيرة محايدة كهربائيا كما تدل على ذلك تسميتها باللغة الاجنبية(١) . وهي تنطلق بسرعة تقل بمقدار العشر فقط عن سرعة الضوء ،

---

(١) النيوترون بالفرنسية مثلا = « Neutron » ، وهي كلمة مأخوذة من كلمة « Neutre » التي تعني « محايد » بالعربية .

كما تظل عديمة الحساسية والتأثر تجاه الحقول الكهربائية أو المغناطيسية المحيطة بالنوى . أما الحاجز الوحيد في طريق تقدمها فهي الصدمة ضد نوى الذرة . ولما كنا نعلم أن المادة متقطعة جدا ، وأن نوى الذرة لا تمثل سوى جزء بسيط جدا من حجمها ، فان الاحتمال يظل ضعيفا جدا في حصول الاصطدام بين النيوترونات والنوى ، كما يتناسب هذا الاحتمال طردا مع سماكة وكثافة المادة الواجب اختراقها .

الا أن النيوترونات تتباطأ بسرعة في الاوساط المؤلفة من نوى خفيفة كالهيدروجين أو « البور » . فكل نواة خفيفة تصطدم بنيوترون تمتص منه جزءا من طاقته ، لذلك تعتبر الماء والارض والاسمنت دروعا واقية فعالة وزهيدة التكاليف ضد الاشعاعات النيوترونية ؛ الا أنه تلزم هنا سماكات هامة مستخدمة في المراكز النووية ، يصعب استخدامها بالنسبة للاعتدة الحربية المتحركة كالدبابات والمصفحات وعربات النقل والمشاة . ان الساتر الترابي البسيط ، الذي تبلغ سماكته ١٫٥٠ م ، يقسم الاشعاع المباشر لسلاح نووي على (١٠٠٠) ؛ أي أن ملجأ مجهزا بشكل مناسب يحمي العناصر المتمركزة فيه بصورة فعالة جدا ضد الاشعاعات المميتة بالنسبة لطواقم دبابات متمركزة في نفس المكان على سطح الارض .

من المعروف أن كافة الاسلحة التكتيكية لساحة المعركة ، المنتشرة لدى حلف شمال الاطلسي خلال الخمسينات والستينات ، كانت أسلحة انشطارية ذات ميزات تشبه كثيرا قنبلتي هيروشيما وناغازاكي . صحيح أن استخدام هذه الاسلحة بكثافة من شأنه التأثير على المدرعات بفضل اشعاعاتها ، ولكنه سيؤدي الى خسائر رهيبة بين المدنيين بسبب تأثيرات الحرارة والضغط ، اللذين لا يؤثران على الدبابات ولكنهما مدمران كاسحان للجو المحيط بكل ما فيه ومن فيه .

شاءت سخرية القدر طوال عشرين عاما أن يعتبر بربريا هذا السلاح الذي يقتل القناص الموجود على سطح الكنيسة دون أن يقتل الكاهن أو يدمر الكنيسة ، في الوقت الذي يعتبر مشروعا السلاح الذي يقتل ويدمر دون أي تمييز ...

في عام ١٩٦٢ ، قال مكنامارا : « ان الاسلحة النووية ، حتى تلك التي لا تتجاوز بضع كيلو طن ، هي وسائط تدمير رهيب لا يمكن تصور استخدامها للدفاع عن مناطق ذات كثافة سكانية مثل أوروبا » . وبتعبير آخر ، لا يمكن تدمير أوروبا بحجة الدفاع عنها . لذلك لا بد من وسيلة أخرى تدافع دون أن تدمر المدافع عنه ، وهذا يتطلب مفهوما جديدا من الناحيتين : التكتيكية والتقنيــة .

لنستعرض أولا الناحية التقنيــة :

ذكرنا آنفا أن الانفجارات النووية المستندة الى الانشطار ، والتي يمكنها أن تكون فعالة جدا ضد طواقم الدبابات ، تؤدي الى حدوث أضرار لدى المدنيين ؛ أما حدود الحيطة بالنسبة للقطعات الصديقة فتجعل استخدامهــا صعبا جدا من الناحيتين السياسية والتكتيكية . مع أنه يمكن الحد من نصف قطر الاضرار بشكل ملموس اذا انقصنا من قوة المتفجر (من ١٠ كيلو طن الى ١ كيلو طن مثلا) ، فان نصف قطر التأثيرات العسكرية ينقص عندئذ الى النصف . عندما تصبح القوة بمستوى القنابل الثقيلة التقليدية المستخدمة في الحرب العالمية الثانية (أي في حدود عشرة أطنان) ، عندئذ فقط تصبح الاضرار الجانبية محدودة بشكل ملموس ، الا أن الفائدة العسكرية لمثل هــذه الوسائط تصبح قليلة الشأن في معظم الحالات التكتيكية .

ان مسخ القنبلة الذرية حتى تصبح بمستوى أسلافها التقليدية سيكون غريبا وغير معقول . لذلك لا بد من ايجاد وسيلة أخرى لابطال القناص المتمركز على السطح دون تدمير الكنيسة ، أي العثور على متفجر نووي يستند الى شيء غير الانشطار الصرف . ومن الطبيعي هنا أن يكون هذا البديل هو « الالتحام » . من المعروف أن اثارة تفاعلات الالتحام تتطلب حرارة تصل الى ملايين الدرجات . والطريقة الوحيدة للحصول على هذه التفاعلات على الارض هي الانفجار الانشطاري . عندما نمزج كمية معينة من الديتريوم أو التريتيوم (أو الاثنين معا) بأداة انشطارية ، يصبح من الممكن الحصول على تفــاعل التحــامي .

هذه التفاعلات الالتحامية هي التي تنتج النيوترونات ، والسلاح الالتحامي ينتج كمية من النيوترونات تزيد بمقدار ٥ ـ ٦ أضعاف عما ينتجه سلاح انشطاري من نفس القوة الانفجارية . هنا تكون نسبة ٨٠٪ من الطاقة على شكل نيوترونات ذات طاقة هائلة ، بينما تتوزع نسبة ٢٠٪ فقط على الضغط والحرارة ، وذلك بعكس التفاعلات الانشطارية تماما ، حيث تذهب نسبة ٨٥٪ من الطاقة بشكل ضغط وحرارة . أضف الى ذلك أن التفاعلات الالتحامية لا تصدر أي نشاط اشعاعي خلافا للانشطار الذي ينتج ١٠٪ من طاقته بشكل اشعاع .

من الواضح اذن أن الانتقال الى النظام الالتحامي يجعل الانفجار النووي مصدر وميض خاطف من الاشعاع النووي : النيوترونات . لذلك يسمى السلاح الذي يعتمد على هذا المبدأ « ذا اشعاعات معززة » أو « قنبلة نيوترونية » .

أثبتت حسابات هذه الاشعاعات أن فعالية هذه الاسلحة ضد الاشخاص تساوي عشرة أضعاف ميثلاتها بالقوة من الاسلحة الانشطارية .

اذا رفعنا ارتفاع الانفجار عن سطح الارض ، يمكننا استبعاد الاضرار الجدية التي يمكن أن تصيب الابنية والمنشآت والقطعات الصديقة المتمركزة بشكل مناسب ، دون المس بالتأثيرات المضادة للدبابات . يستطيع الوميض النيوتروني قتل كل ما هو حي على سطح الارض في كامل منطقة التأثير بصورة حتمية لا مجال فيها للصدفة أو الخطأ .

يقارن الجدول اللاحق الفعالية العسكرية لقنابل النيوترون والقنابل الانشطارية « الكلاسيكية » مع الاضرار الناجمة عن كل منها على ارتفاعات مختلفة للانفجار . أما نصف قطر الفعالية المأخوذ هنا ، فهو نتيجة الدراسات الطويلة التي جرت في مخابر القوات المسلحة الامريكية وعلى حقول التجارب وميادين الاختبارات . وهي تشمل ثلاثة مستويات :

٨٠٠٠ راد(١) : يصبح الاشخاص خارج المعركة خلال أقل من خمس دقائق

---

(١) ـ **راد** = وحدة جرعة الطاقة الممتصة في النسج الحية من الطاقة الناتجة عن الاشعاعات المتأينة ، وتعادل ١٠٠ أرغ ـ غرام .

بعد الانفجار ، بانتظار الموت المحقق الذي لا بد أن يأتي بعد يوم أو يومين .

۳۰۰۰ راد : يصبح الاشخاص خارج المعركة خلال أقل من خمس دقائق ويبقون كذلك طوال ٣٠ ـ ٤٥ دقيقة ، يستعيدون بعدها وعيهم بصورة جزئية ولكنهم يبقون خارج المعركة جسديا حتى الموت المحقق بعد ٤ ـ ٥ أيام .

٦٥٠ راد : يتم ابطال الاشخاص جسديا خلال أقل من ساعتين . هنا يمكن معالجتهم طبيا حيث يتغلبون على هذه الجرعة ويعيشون . الا أن الاغلبية تبقى جسديا خارج المعركة حتى الموت الذي يأتي بعد بضعة أسابيع .

بالنسبة للجرعات التي تزيد عن (٢٠٠٠) راد ، يظهر التناذر على مستوى الجهاز العصبي المركزي : بلادة وخمول ، دوار ، اختلاجات واغماءات . يعتبر العرضان الاخيران من الظواهر المميزة للجرعات التي تزيد على (٥٠٠٠) راد .

بالنسبة للجرعات التي تتراوح بين ٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ راد ، يتأثر بالدرجة الاولى الجهاز المعدي والمعوي .

تخصص الجرعات التي تتراوح بين ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ راد أو أكثر ضد التشكيلات المدرعة ، بينما تستخدم الجرعات الادنى لابطال المؤخرات .

يلاحظ على الجدول التالي ما يلي :

ـ بالنسبة للاسلحة الانشطارية البحتة ، تكون أنصاف أقطار تدمير الطواقم بالاشعاعات أكبر من التدمير بالضغط للدبابات نفسها . بالنسبة لاسلحة ساحة المعركة ، تظل الاشعاعات هي التأثير المسيطر ضد الدبابات ، حتى بالنسبة للاسلحة الانشطارية البحتة (حتى قوة في حدود ٥٠ كيلو طن) . الا أنها تترافق بتدمير البيئة المحيطة على مساحة تبلغ الضعف على الاقل .

٢ ـ أما الانفجارات المنخفضة في حدود ١٥٠ ـ ٥٠٠ م ، فان الاضرار الجانبية لسلاح التحامي ، معادل لسلاح انشطاري قوته ١٠ كيلو طن ، تكون أقل بحوالي ٤٠ ـ ٥٠ مرة .

((نصف قطر الفعالية)) بالاقدام والامتار

ارتفاع الانفجار	فئة السلاح	٨٠٠٠ راد	٣٠٠٠ راد	٦٥٠ راد	تعمي الدبابات بواسطة الضغط	أضرار سكنية: جدية	أضرار سكنية: معتدلة	أضرار سكنية: خفيفة
٥٠٠ قدم (١٦٠ م)	١ ك.ط التحام ١٠ ك.ط انشطار	٢٥٠٠ (٨٥٠ م) ٢٥٠٠ (٨٥٠ م)	٣٠٠٠ (١٠٠٠ م) ٣٠٠٠ (١٠٠٠ م)	٤٠٠٠ (١٣٠٠ م) ٤٠٠٠ (١٣٠٠ م)	٥٥٠ (١٨٠ م) ١٢٠٠ (٤٠٠ م)	١٤٠٠ (٤٧٠ م) ٣٠٠٠ (١٠٠٠ م)	١٨٠٠ (٦٠٠ م) ٤٠٠٠ (١٣٠٠ م)	٢٠٠٠ (٦٦٠ م) (٦٠٠٠) (٢٠٠٠ م)
١٥٠٠ قدم (٤٨٠ م)	١ ك.ط التحام ١٠ ك.ط انشطار	٢٥٠٠ (٨٥٠ م) ٢٥٠٠ (٨٥٠ م)	٣٠٠٠ (١٠٠٠ م) ٣٠٠٠ (١٠٠٠ م)	٤٠٠٠ (١٣٠٠ م) ٤٠٠٠ (١٣٠٠ م)	∴ ∴	٥٠٠ (١٦٠ م) ٤٠٠٠ (١٣٠٠ م)	١٢٠٠ (٤٠٠ م) ٥٠٠٠ (١٦٠٠ م)	١٨٠٠ (٦٠٠ م) ٧٠٠٠ (٢٣٠٠ م)
	١ ك.ط التحام ١٠ ك.ط انشطار	١٠٠٠ (٣٣٠ م) ١٠٠٠ (٣٣٠ م)	٢٠٠٠ (٦٦٠ م) ٢٠٠٠ (٦٦٠ م)	٣٥٠٠ (١١٦٠ م) ٣٥٠٠ (١١٦٠ م	∴ ∴	∴ ١٧٠٠ (٥٦٠ م	∴ ٣٥٠٠ (١١٦٠ م)	∴ ٥٠٠٠ (١٦٠٠ م)

٣ ـ بالنسبة للانفجارات المرتفعة (١٠٠٠ م) ، لا ينجم عن السلاح الالتحامي (النيوتروني) أي تأثير يذكر للضغط .

اذا رفعنا ارتفاع الانفجار لتجنب الاضرار لدى المدنيين ، فان نصف قطر الفعالية العسكرية للاشعاع لا ينقص الا في حدود ١٠٪ بالنسبة لـ (٦٥٠) راد ، ٣٠٪ بالنسبة لـ (٣٠٠٠) راد ، و ٦٠٪ بالنسبة لـ (٨٠٠٠) راد .

يستنتج مما تقدم أن قنبلة النيوترون هي السلاح المثالي المضاد للدبابات ، الذي يسمح باحباط أي هجوم مدرع بواسطة « بساط من الاشعاعات » ، يقتل الاشخاص ويعف عن المنشآت المدنية والنباتات ، التي لا بد أن تسحق أو تحرق نتيجة الضغط والحرارة الناجمين عن القنابل الذرية الكلاسيكية . على الصعيد العسكري ، تسمح بالرمي القريب من القطعات الصديقة ، بل فوق الملاجيء والخنادق الصديقة المقامة ميدانيا بسهولة . وقد رأينا آنفا أنه يكفي ٥ر١ م من التراب لكي يوقف تماما موجات النيوترون التي تكنس في طريقها كافة المهاجمين الراجلين أو على الآليات أو الدبابات ، والذين نجحوا في اجتياح الموقع الصديق المنظم .

المغالطة الأخلاقيّة

من المؤسف حقا أن اسم هذه القنبلة قد اختير على أساس خصائصها التقنية وليس الميزات العملياتية . لو عبر هذا الاسم عن تأثيراتها المضادة للدبابات بدلا من صيفتها العلمية ، وعما تفعل بدلا مما هي عليه ، لما أثارت « القنبلة النووية المضادة للدبابات » مثلا كل هذه الضجة التي أثارتها « قنبلة النيوترون » ، ولما حال هذا الجدل المضحك ، الذي استمر عشرين عاما ، دون نشر هذه القنابل في أوروبا . وربما كان من الممكن تجنب هذه الصفات والنعوت السخيفة التي أحاطت بها من كل جانب : مثل « القنبلة الرأسمالية » التي « تقتل الناس وتبقي على الثروات » ، التي « تعبر عن تسلسل القيم في العالم الغربي » ، والتي « تسمح بقتل الانسان وسرقة بذته سليمة دون أي ضرر » ... الواقع أن قنبلة النيوترون لا تصون الممتلكات المادية وحدها ، بل تصون أيضا وخاصة حياة المدنيين والجنود الاصدقاء اذا أرادوا ان يحموا أنفسهم داخل ملاجىء بسيطة وسهلة الاعداد . انها المتفجر الذي تعتبر الحماية منه أسهل من سواه بكثير ، اذ من المفضل التواجد في ملجأ يتعرض لضربة مباشرة من قنبلة نيوترونية بدل التواجد في حدود نصف القطر الخطر لاية قنبلة عادية من الحرب العالمية الاولى . أما ما يتعلق بقتلها للانسان ، فهل يحتاج الامر للتذكير بأن كافة الاسلحة ، في كافة العصور ، منذ الفأس الحجري والسهم حتى البندقية والرشاش ، لم تكن تهدف الى شيء آخر غير قتل الانسان ؟ اذا كانت هناك محاكمة أخلاقية فعلا ، لكان عليها أن تحاكم كافة الاسلحة السابقة وخاصة القنابل الكلاسيكية للحرب العالمية الثانية ، التي لم تكن تميز بين الممتلكات أو الانسان ، فتسحق النساء والشيوخ والاطفال ، وكذلك القنبلة الذرية التي دمرت هيروشيما وتركت وراءها مذبحة رهيبة دون تمييز أو رحمة أو شفقة ...

اذا كان لا بد من المحاكمة ، فالاحرى أن تقام الدعوى على الحرب نفسها وليس على وسائطها . وسنرى فيما بعد كيف يساهم هذا السلاح الجديد في قتل الحرب نفسها عندما يقضي بشكل انتقائي على الجنود المعتدين ويبقي في الوقت نفسه على المدافعين وعلى المدنيين (أصدقاء أو أعداء) . أضف الى ذلك أن الذين يتلقون جرعات بسيطة ويسعفون في الوقت المناسب يستعيدون حياتهم الطبيعية دون أي تشويه جسدي كما يحدث بالاسلحة الاخرى .

ان الجدل القائم حول طريقة القتل الآن أشبه بذلك الذي جرى بين اثنين من أكلة لحوم البشر حول طريقة أكل الكاهن المبشر ، وهل من الانسب أخلاقيا أن يؤكل مشويا أم مسلوقا .

قديما قيل : « تنوعت الاسباب والموت واحد » . فالقتل قتل ، سواء طعنا صدر العدو بالحربة أو ذبحناه بالسكين أو خنقناه بالغاز أو أحرقناه بالنابالم أو مزقناه بالرصاص أو بشظايا القنابل . بل يمكن القول أن قنبلة النيوترون « أكثر رحمة » من سواها ، اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير في هذا المجال ، أو ليست أكثر وحشية ولا بربرية على الاقل لانها لا تمثل بالضحية ولا تشوهها ... أضف الى ذلك أن الحماية منها سهلة جدا ، وتتلخص ببقاء المعتدي داخل حدود بلاده .

المسألة الوحيدة في نظرنا ، هي معرفة ما اذا كان الدفاع قد بقي مشروعا أم لا ؛ اذا كان الجواب بالايجاب ، وهذا ما يبدو طبيعيا ، فان قنبلة النيوترون تعتبر أفضل سلاح للدفاع والردع والسلام .

٣ - القنبلة والكنيسة

هل يعقل أن تكون قنبلة النيوترون سلاح سلام ؟ هل يمكن لهذه الاداة الرهيبة المميتة أن تكون أقدر من سواها على محاربة الحرب ؟ هل هي شر أم خير ؟ ظل الجدل والتساؤل يحيطان بقنبلة النيوترون حتى انتقل الامر الى الكنيسـة .

في ربيع ١٩٧٨ ، دعيت الى عشاء خاص في « منهاتن » من قبل صديق قديم ، هو الجنرال « ريتشارد سللا » ، حيث التقيت على المائدة برجلين مرموقين من رجال الكنيسة كان أحدهما « المونسينيور » جيوڤاني تشيللي ، ممثل الفاتيكان في الامم المتحدة .

بعد العشاء ، أعلن الجنرال أمام المدعوين أنني قمت بتطوير قنبلـة نيوترونية تعمل كذا وكذا ... ما كادت الدهشة تزول عن الوجوه حتى أمطرني الجميع بوابل من الاسئلة حول هذا السلاح الشيطاني الذي سمعوا عنه في الصحافة ووسائل الاعلام ولكن « من بعيد » كما يقولون . وقد ركز ممثـلا الكنيسة في أسئلتهما على الناحية الاخلاقية بالذات .

عند انتهاء المناقشات ، نظم مضيفنا نوعا من التصويت لمعرفة المؤيدين لانتاج هذه القنبلة . وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما وجدنا الاسقفين الكبيرين في عداد المؤيدين !...

بعد ذلك ببضعة أسابيع ، طلب مني الجنرال « سللا » الحضور الى نيويورك لكي يقدمني للاسقف « أغوستينو كازارولي » . وعند وصولي ، دعيت للعشاء في مقر بعثـة الفاتيكان في الامم المتحـدة ، حيث جلست بين « كازارولي » وشاب يسوعي تخرج حديثا من جامعة « هارفارد » ، حيث درس العلاقات الدولية . وقد كان في الوقت نفسه ضليعا في المسائل السياسية

والاستراتيجية النووية ، فكان من الطبيعي أن نتبادل الحديث حول هـذه المسائل . كان من الواضح أن الشاب اليسوعي كان معارضا لاستخدام الاسلحة النووية التكتيكية ، بما في ذلك الاسلحة النيوترونية ، لاسباب لاهوتية وأخلاقية. وعندما سألته عن السبب أجاب : « لأن الاسلحة النووية أكثر تدميرا من غيرها بكثير » .

آنذاك ، لم ينبس « المونسينيور » كازارولي ببنت شفة ، ولكنه ما لبث أن أرسل الي بعد بضعة أيام « ميدالية » من طرف قداسة البابا بولس السادس.

في شهر حزيران من عام ١٩٧٩ ، اتصل بي الجنرال « سللا » مرة أخرى وأخبرني بدعوتي للذهاب الى روما مع عدد من الامريكيين بمناسبة ترفيع « كازارولي » نفسه الى مرتبة كاردينال وتعيينه كسكرتير دولة للفاتيكان . في روما ، دعينا الى حفلة غداء على شرف الكاردينال الجديد ، حضرها عـدد كبير من الكرادلة . قبل انتهاء الغداء ، نهض أحد الكرادلة ، فامتدح الكاردينال الجديد ثم طلب اليه القاء كلمة بهذه المناسبة . عندئذ نهض كازارولي وشرع يتحدث باللغة الانكليزية معتذرا بأنه مضطر للايجاز لأن لديه موعدا وشيكا مع قداسة البابا . وفي نهاية كلمته ، قال أنه كان يود تقديم كافة مدعويه واحدا تلو واحد ، ولكن لضيق الوقت سيكتفي بتقديم اثنين فقط ، كنت أنا أولهما . بعد انصرافه ، قام أحد المدعوين بتقديمي لأحد الكرادلة باعتباري مختـرع القنبلة النيوترونية . عندئذ ظهرت علائم الدهشة والاستغراب على وجهه وكأنه رأى الشيطان نفسه في الفاتيكان .

في صباح اليوم التالي ، دعيت مع بعض المقربين من كازارولي الى مصلّى صغير في الحدائق البابوية ، حيث قام بالقداس على بعد خطوات مني قداسة البابا يوحنا بولس الثاني . بعد الصلاة ، اختلط بالمدعوين حيث قدمني اليه الكاردينال كازارولي « كأب للقنبلة النيوترونية » ... لم يظهر على وجه البابا أي أثر للدهشة أو الاستغراب ، بل نظر الي مليا ثم قال : « آمل انك تعمل في سبيل السلام » . وعندما أكدت لـه أنني أبذل قصارى جهـدي في حدود امكانياتي ، أعرب عن رضاه ثم شد على يدي والتفت الى مدعو آخر ...

صموئيل كوهين

الفصل الثالث

الدّفاع عن أوروبّا

١ - في الغرب - دفن «كلاوزويتز»

- المظلّة النوويّة الأمريكيّة

منذ ثلاثين عاما ونيف ، في عام ١٩٤٩ ، ولدت منظمة حلف شمال الاطلسي . آنذاك ، كان الغربيون محقين في قلقهم : فها هو « ستالين » المنتصر على ألمانيا قد رفع أصدقاءه الشيوعيين الى سدة الحكم في كافة البلدان التي احتلها الجيش الاحمر خارج الستار الحديدي ، وها هو الرفيق « ماوتسي تونغ » ينهي تحرير الصين من نفوذ « تشانغ كاي شك » ، مما آذن بقرع ناقوس الخطر بالنسبة للمستعمرين الفرنسيين في الهند الصينية . في نشوة الظفر ، عمد الغربيون الى تسريح قواتهم ، وبدأت أوروبا تضمد جراحها ، مقتنعة بأن الحرب العالمية الثانية ستكون نهاية المطاف ...

الا أن الروس أخطؤوا في تطوير امتيازاتهم بشكل أسرع وأبعد مما ينبغي ، وذلك عند فرضهم الحصار على برلين ، فنجحوا في اثارة قلق الديمقراطيات

الغربية . أضف الى ذلك قيامهم في عام ١٩٤٩ بكسر الاحتكار الامريكي للسلاح الذري بشكل فاجأ العالم كله بسرعته . استغل ستالين هذا السبق ، وخاصة بعد سيطرة الشيوعيين على الصين ، لكي يتحرك في كوريا حيث اصطدم بالامم المتحدة . الا أن المشاة الصينيين نجحوا في اعادة قوات الجنرال « ماك أرثر » الى خط العرض (٤٧) ، بعد أن فضل الرئيس ترومان تحمل فشل عسكري وسياسي مهين للولايات المتحدة ، على استخدام السلاح الذري .

دفعت أمريكا ثمنا باهظا في كوريا أيضا ، مما حدا بأيزنهاور لجعل هذه الحرب محور حملته الانتخابية مع التركيز على التهديد باستخدام الاسلحة النووية .

بوصول الجمهوريين الى الحكم ، ممثلين بالجنرال أيزنهاور ، بدأت مرحلة جديدة تعتمد في حل الامور العسكرية على التكنولوجيا بدلا من الكتائب . وهكذا ستستبدل الجيوش المكثفة بالسلاح الذري الاستراتيجي الذي مثلته القنبلة الهيدروجينية منذ عام ١٩٥٣ ، ثم السلاح الذري التكتيكي الذي أطلقت قنبلته الاختبارية الاولى في العام نفسه .

كان من المتفق عليه سابقا أنه لا بد من وجود (٩٢) فرقة للحصول على توازن القوى مع الجيش الاحمر في أوروبا ، الا أن هذا العدد أنقص بمقدار النصف بعد أن ظهرت عقيدة « الردود الانتقامية المكثفة » ، التي تعتمد على ضرب العدو في الاعماق بواسطة الصواريخ العابرة للقارات والطائرات القاذفة ، وكذلك بعد أن تم تزويد القوات البرية بالسلاح النووي التكتيكي المعد لضرب الجيوش والفرق في الميدان . بهذا التهديد المزدوج وحده ، يمكن ضمان نجاح الردع ومنع العدوان .

في هذا الجو السياسي الواضح ، شرع التقنيون والتكتيكيون في العمل ، حيث نجح الاوائل خلال بضع سنوات في اعداد ترسانة متكاملة من الاسلحة التكتيكية النووية ، كذلك زودت بالمتفجرات النووية كل من قنابل الطائرات ، الطوربيدات البحرية ، الالغام الارضية ، قذائف مدفعية الميدان والمدفعية المضادة للطائرات . بل نجح التقنيون أيضا في تزويد كتائب المشاة ووحدات

الاستطلاع المدرعة بالهاون الذري الشهير ، « دايفي كروكيت » ، الذي يحمل على الظهر أو يوضع فوق عربة جيب ، والذي ينقل الزخم النووي الى المخافر الامامية للجيش في الميدان .

أما التكتيكيون ، فقد عمدوا من جانبهم الى تكييف الوحدات والعقيدة القتالية بشكل ينسجم مع هذه الوثبة الهائلة لعامل « النار » الذي ضرب فجأة بأكثر من ألف . وهكذا تغير تشكيل الفرق في القوات البرية لكي تنسجم مع هذه الثورة في التطور ، فحل التنظيم الخماسي الخفيف الحركة محل الالوية الثقيلة الثلاثة . بهذا ، استبعدت فرضية الحرب الكلاسيكية نهائيا في أوروبا ، وجاءت الرسالة التحذيرية واضحة للاعداء والاصدقاء على السواء .

وهكذا جرى حساب تعداد قوات الحلف الاطلسي منذ ولادته على أساس حرب تلعب فيها الذرة الدور الرئيسي منذ البداية . كانت الذرة اذن حجر الزاوية للردع بفضل الرعب الاستراتيجي من جهة ، والسلاح النووي التكتيكي على المسرح الاوروبي من جهة ثانية .

الغيوم الأولى ...
القمر الروسي « سبوتنك »

بعد هيروشيما بأقل من عشر سنوات ، جاءت قنبلة « ادوارد تيلر » الهيدروجينية لكي تضاعف قوة القنبلة الواحدة الف مرة . وهكذا اصبحت القوة التدميرية للطيران الاستراتيجي ساحقة تماما بعد أن أضيفت اليه القاذفات (ب ـ ٤٧) والقاذفات الجبارة (ب ـ ٥٢) ، كما كان بامكان القنبلة الجديدة أن تدمر « نيويورك » تدميرا تاما . كنا نعلم أن الاتحاد السوفييتي قد قام هو الآخر بتجربة قنبلة هيدروجينية ، الا أن طيرانه لا يقارن مع الطيران الامريكي آنذاك من حيث نقل هذا السلاح الجديد ، كما كانت السماء الامريكية محمية بواسطة أعداد هائلة من المطاردات وآلاف الصواريخ م/ط المحيطة بكافة المدن الكبرى . لذلك كانت « الردود الانتقامية الكثيفة » محافظة على كامل قيمتها الرادعة في أذهان الرأي العام .

في شهر تشرين الاول من عام ١٩٥٧ ، جاء الحدث الخطير : حيث حلق أول قمر صناعي سوفييتي (سبوتنك) في سماء مدينة « شيكاغو » . هنا وقع النبأ وقع الصاعقة على الامريكيين ، الذين أدركوا أن الروس يمتلكون صواريخ قادرة على حمل أقمار صناعية ووضعها في مدار حول الارض ، أي أنهم أصبحوا قادرين على القاء قنبلة هيدروجينية فوق « نيويورك » ، دون أن يكون هناك أي سلاح مضاد في ذلك الحين . بهذا انهار كل شيء ، وبدت القاذفات فجأة وكأنها عفا عليها الزمن ...

وهكذا تبدد المرح النووي ليحل محله الرعب النووي الذي ما زال ماثلا في الاذهان حتى اليوم ، خاصة بعد زوال الحماية التاريخية التي كانت تتمتع بها أمريكا بصورة طبيعية نتيجة وجود المحيطات . كذلك أصيب الصلف الذي كان يبديه قادة سلاح الطيران الاستراتيجي بصدمة قوية بعد أن بلغ الامر حدا جعل الجنرال « كورتس لوماي » يعلن عن عدم جدوى القوات البرية بعد اليوم !... خلاصة القول أن استراتيجية « الردود المكثفة » لم تعد صالحة وأن المظلة النووية قد تمزقت .

كان أول رد فعل هو الاستثمار السياسي لهذا القلق العام من قبل المعارضة الديموقراطية للجمهوريين الذين يحكمون بواسطة أيزنهاور منذ عام ١٩٥٢ . لذلك رأينا عضو مجلس الشيوخ الشاب « جون كينيدي » يثير عاصفة هوجاء حول تقصير الادارة في السباق التكنولوجي مع الاتحاد السوفييتي. وما أن استلم الحكم في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٠ ، حتى بادر الى بذل كافة جهوده للتخفيف من آثار الكابوس الذي خلفه القمر الصناعي الروسي « سبوتنك » في نفوس المواطنين الامريكيين . فقد قام ، علاوة على وعده ببذل أقصى طاقته « للقضاء على الاسلحة النووية قبل أن تقضي علينا » ، باتخاذ قرارين لهما أهمية كبرى ، سيتركان انعكاسات هائلة في العالم :

يهدف القرار الاول الى تبديد المخاوف التي أثارها هو نفسه أثناء حملته الانتخابية . لذلك كان لا بد أن يعمد في هذا المجال ، ليس فقط الى استدراك التخلف الامريكي فيما يتعلق بالقوى الاستراتيجية ، بل كذلك الى تحقيق سبق على الروس بردعهم نهائيا عن اشهار هذا التهديد . وهكذا انطلق البرنامج الهائل ، الخاص بصنع ١٠٠٠ صاروخ « مينوتمان » و ٤١ غواصة نووية « بولاريس » ، فبدأ سباق الاسلحة الاستراتيجية الذي ما زال مستمرا الى اليوم . عمد « كينيدي » اذن الى مضاعفة وسائط الرعب الاستراتيجي في نفس الوقت الذي كان يدين فيه نظريا استراتيجية الرد المكثف . ويبدو أن « السياسة الواقعية » كانت تقضي بادانة انتشار الاسلحة النووية لدى الآخرين مع زيادتها لدينا بنسب هائلة ...

الا أن « كينيدي » في نفس الوقت الذي قرر فيه زيادة الاسلحة الامريكية الاستراتيجية زيادة هائلة ، وجه ضربة ايقاف رهيبة لتطور الاسلحة النووية التكتيكية التي بدأ بها سلفه . ولا توجد أية صعوبة في تفسير هذا التناقض : فالرعب النووي ، الذي استولى على أمريكا بعد « سبوتنك » ، كان يتطلب العمل بسرعة قصوى للتصدي لهذا التهديد السوفييتي الجديد مع ضمان تفوق استراتيجي لم يتوقف في الواقع مطلقا ، الا أن حادثة الطيار الامريكي ، « غاري باورز » ، الذي أسقطت طائرته على ارتفاع (٢٥٫٠٠٠ م) فوق الاراضي الروسية ، قد شوشت صورته في أذهان الرأي العام .

بالتوازي مع هذا ، كان لا بد من تلافي كافة الاسباب المحتملة للتراشق الحروري ـ النووي . من بين هذه الاسباب ، بل أكثرها احتمالا في أذهان ادارة الرئيس كينيدي ، التصعيد النووي الذي لا بد أن ينتهي بالتراشق الاستراتيجي وفق النظريات الجديدة . لذلك يعتبر ادخال الاسلحة النووية التكتيكية في ملاك الفرق الامامية ، والذي قرره الرئيس أيزنهاور ، خطرا للغاية لانه يضع الصاعق المفجر للدمار الشامل بين يدي قائد صغير ... وهذا يعني بتعبير آخر أن الحرب يجب أن تبقى في المستوى الكلاسيكي حتى لاتتعرض الولايات المتحدة للموت ...

وهكذا حلت اللعنة على السلاح النووي التكتيكي الذي صمم وطور للدفاع عن حلف شمال الاطلسي ، أي الاسطبل وليس الدار .

ان كافة نظريات التصعيد ، التي وضعتها طواقم « مكنامارا » في البنتاغون، تؤكد أن القيامة النووية تصبح حتمية بمجرد عبور « العتبة النووية » . انهم ينسون حقيقة أولية بسيطة ، وهي أن رجال الاطفاء في كافة القرى المجاورة يعرفون جيدا أنه من الافضل منع نشوب الحريق بدلا من الاضطرار لمكافحته ، وأن السلاح النووي التكتيكي الذي وافق عليه أيزنهاور قد جاء من أجل هذا بالذات ، من أجل ردع العدو عن اشعال النار في أوروبا . أما نظرية « الرد المرن » فتؤجل تدخل السلاح النووي حتى « يسوء الوضع » بالنسبة للحلفاء ، وترسم في مكان مجهول من القارة الاوروبية واقية للنار النووية في منتهى الغموض والابهام ، يمكن تأويلها من قبل الخصم كرغبة سرية في أن يعاد

للمحيط الاطلسي (الذي يفصل الدار عن الاسطبلات) دوره القديم كواقية للحريق . ان واقية الحريق الوحيدة ، و « العتبة » الوحيدة بالامس واليوم وغدا هي التي تفصل السلام عن الحرب ، والتي تقع جغرافيا على الحدود الواجب الدفاع عنها . ومما لا شك فيه أن ادارة الرئيس كينيدي ، بتخليها عن واقية أيزنهاور ، وبخضوعها للرعب النووي ، قد حطمت كل جهاز الدفاع والردع الذي وضع بصبر وأناة خلال السنوات العشر الاولى من عمر حلف الاطلسي .

عمليا ، كان لا بد أن تكون لهذه الحملة على السلاح النووي التكتيكي عواقب كثيرة في مجالات شتى :

- **على الصعيد التقني** ، رأينا آنفا كيف وجهت ضربة رهيبة الى الابحاث الهادفة الى تحديث هذا النوع من السلاح . فقد دفنت قنبلة النيوترون في نفس اللحظة التي تم فيها اعدادها تكنولوجيا ، بينما ازدادت وتيرة العمل في الابحاث الجارية حول السلاح الاستراتيجي .

- **على الصعيد السياسي** ، عمد الرئيس كينيدي الى توجيه الجهود الامريكية نحو مراقبة التسلح وحظر انتشار الاسلحة النووية . وهكذا تم تشكيل « وكالة المراقبة ونزع الاسلحة » ، التي ارتبطت مباشرة بالبيت الابيض. ولا بد من التنويه هنا بأن هذا الميدان كان يزيد من شعبية الادارة ويتمشى مع ما أعلنه الرئيس كينيدي أثناء حملته الانتخابية من عزمه على نزع السلاح النووي .

خلاصة القول أن منعطفا هائلا قد حدث ، فأدارت امريكا ظهرها للتكنولوجيا النووية الجديدة ، وطلبت من حلفائها الاوروبيين أن يقدموا للحلف كافة الصدور اللازمة عوضا عن الآلات التي كانت حتى الآن حصنا منيعا لاوروبا وللسلام .

هذه هي النتيجة الملموسة لاستراتيجية « الرد المرن » التي حلت محل « الردود المكثفة » . وهكذا تم الانتقال من الافراط الى التفريط : فالردود الانتقامية المكثفة ، التي تهدد بابادة سكان المعسكر المعادي قد أصبحت سخيفة

منذ اطلاق أول قمر صناعي سوفييتي أخضع الارض الامريكية لنفس التهديد . لذلك كان لا بد من تغيير هذه الاستراتيجية التي لم تعد قابلة للتصديق . لقد تم حساب تعداد قوات الاطلسي على ضوء قوة النيران النووية التكنيكية الامريكية . الا أن هذا العامل قد أصبح فجأة في غاية الغموض والابهام ، دون أن يضمحل نهائيا لكي يستلزم قرارات جديدة . كان « الرد المرن » أشبه بالوحش الهجين ، الذي يرى فيه الامريكيون فرصة لتجنب اللجوء المباشر والمخيف الى الذرة ، آملين أن يكفي مجرد وجوده واحتمال استخدامه عاجلا أم آجلا لكي يجعل المعتدي يفكر مليا قبل أن يصل الى الاطلسي . أما الاوروبيون ، فكانوا يرون في الوجود المستمر للاسلحة النووية التكتيكية الامريكية عذرا مناسبا لتجنب تقديم القوات (أو الصدور) المطلوبة من قبل « مكنامارا » . وهكذا كانوا يفضلون الاستمرار في الركون الى الضمان النووي الامريكي بدلا من دفع الثمن الباهظ للفرق التقليدية اللازمة لخلق التوازن مع الجيش الاحمر المنتشر في القارة الاوروبية . كل هذا التردد حول السلاح التكتيكي ، والذي بدأته ادارة الرئيس كينيدي ، أثر بطبيعة الحال على التماسك السياسي لحلف شمال الاطلسي . الا أن أخطر أثر خلفه هذا التردد هو انعكاسه على أهم الاوراق الرابحة للدفاع والردع والسلام : وهي **العقيدة التكنيكية للقوات البرية** ، هذا العامل الذي لمسنا حيويته منذ حزيران ١٩٤٠ ...

«الروليت الروسيّة» و«حاملة الطائرات الشراعيّة»

في مطلع الستينات ، كانت كلية الحرب العليا للقوات البرية الامريكية لا تزال تعيش على الافكار السائدة في عهد الرئيس أيزنهاور ، حيث كان التكتيكيون والتقنيون يسعون جاهدين للتوفيق بين العقيدة التكتيكية للجيش الامريكي والاسلحة الجديدة ، مقتنعين بأن صفحة قد قلبت نهائيا في سجل التاريخ العسكري . هذا في الوقت الذي كان أجدر بهؤلاء أن يتعظوا بتاريخ مدينة « ليفنوارث » المجاورة ، فيتذكرون أهمية الاستثمار السريع للمكتشفات التكنولوجية الجديدة قبل أن يستولي عليها المنافسون ..

ففي القرن الفائت ، كان حصن « ليفنوارث » ، حيث تتقاطع الطرق القادمة من « أوريغون » و « سانتافي » ، منطلقا لغزو الغرب . وقد زادت من شهرته الحروب الهندية وأمجاد البطل الشهير « بوفالوبيل » . طلبت شركة الخطوط الحديدية ، التي كانت تمد أول سكة بين الاطلسي والهادي ، الموافقة على عبور نهر « الميسوري » عند « ليفنوارث » . ولكن ، لاسباب تتعلق بالتلوث والخوف من التقنيات الجديدة ، رفض الزعماء المحليون بناء الجسر الحديدي الذي بني على مسافة ٣٥ ميلا الى الجنوب ، في قرية صغيرة اسمها « كنساس سيتي » ؛ وهكذا أصبحت هذه الاخيرة مدينة كبيرة يقطنها مليونان من السكان ، بينما لا يتجاوز عدد سكان « ليفنوارث » الآن (٣٠٫٠٠٠) نسمة ، رغم اعتزازها بماضيها التاريخي وكليتها الحربية وسجنها الشهير ، الذي يعتبر أكبر سجون الولايات المتحدة . لذلك يتفاخر العسكريون بأنهم خريجوا « ليفنوارث » ، كما يقول الناس بسخرية عن المساجين الذين ينهون مدة سجنهم هناك بأنهم خريجو « ليفنوارث » ...

تحت قيادة الجنرال « هارولد جونسون » ، المشهود له بالذكاء الحاد ، ظل التكتيكيون الامريكيون مدة طويلة يحاولون تكييف معياري المناورة : **عامل النار** ، الذي تضاعف بمقدار ألف مرة بواسطة السلاح النيوتروني ،

وعامل الحركة ، الذي بقي على ما هو عليه تقريبا خلال الحرب العالمية الثانية . كذلك نجح علماء « لوس الاموس » في تقديم ما أطلق عليه اسم « دايفي كروكيت »، سلاح الالتحام النووي ، ورجع الطاقم الذي شهد التجارب في صحراء نيفادا ممتلئا بالحماس لهذا السلاح الجديد الذي منح كتيبة المشاة قوة نارية فورية تعادل عدة أفواج مدفعية فرقية . أما المدفعيون ، الذين كانوا يحتكرون النيران النووية التكتيكية حتى الآن ، فقد وجدوا في هذا السلاح الجديد منافسا مخيفا لهم . وأما رجال المدرعات ، الذين أصبحوا سادة المعركة منذ « غودريان » ، فلم يعجتهم بطبيعة الحال أن يستطيع صف ضابط بسيط على رأس جماعة مشاة تدمير فصيلة دبابات ثقيلة بضربة واحدة بفضل هذا السلاح الجهنمي . الا أنهم وجدوا بعض العزاء عندما فكروا بأن « دايفي كروكيت » ، المحمول على عربة جيب والقادر على الرمي لمسافة ٤ كم (بدلا من ٢ كم ، مدى هاون المشاة الصغير) ، سيدخل في ملاكات سرايا الاستطلاع المدرعة . أما الضباط الجويون ، فقد تصوروا أنفسهم يمتطون حوامات القتال ويلاحقون دبابات حلف وارسو بواسطة السلاح الشيطاني الجديد . الا أن الاسلحة م/ط المحمولة ، مثل « العين الحمراء » (Red Eye) التي يحملها جندي المشاة ، فكانت تلقي بعض الظلال على الصورة الجميلة لأن الحوامات أصبحت فريسة سهلة لجنود المشاة « الملاعين » ...

في هذا الجو بالذات ، حيث المهمة الصعبة التي تقضي بوضع عقيدة جديدة مستندة على الذرة التكتيكية ، سقطت قنبلتا « الرد المرن » سقوط الصاعقة :

ـ كانت القنبلة الاولى مبررة تماما : فقد صدر أمر من البيت الابيض ، بعد قليل من وصول كينيدي الى سدة الرئاسة ، يفرض على البنتاغون (وبالتالي على « ليفنوارث » التي كانت منهمكة في اعداد العقيدة الجديدة) أن يعمد بسرعة الى وضع نظام عسكري رسمي لحرب العصابات . وقدر برر « كينيدي » ذلك بقوله : « **أن أمريكا قد تخسر كل شيء دون اطلاق أي صاروخ في الفضاء ، وأن الذرة لا تستطيع حل كافة المشاكل التي يمكن أن يتعرض لها العالم الحر في مواجهة الاستراتيجية السوفييتية الشاملة** » ... فهاهي كوبا قد سقطت

في أيدي الشيوعيين تحت سمع وبصر الطيران الاستراتيجي الامريكي الجبار والعاجز في آن واحد . وفي فييتنام ، استطاع « هوشيمينه » ، بعد قضائه على الاستعمار الفرنسي ، أن يتصدى للامبرياليين الامريكيين الذين يدعمون نظام سايغون . الا أن الغرب بوجه عام ، وأمريكا بوجه خاص ، قد ركزت اهتمامها على تهديد الجيش الاحمر في أوروبا ؛ فلم تشعر بمناورة التطويق الشامل لمواقع حلف شمال الاطلسي .

في هذه الناحية بالذات ، أي ضرورة الاستعداد لمواجهة كافة أشكال الحرب وليس الشكل التقليدي فحسب ، كان كينيدي على حق في لفت نظر القوات المسلحة . عندئذ ، بدأ تكتيكيو الجنرال « جونسون » يعملون بوحي من خبرات الفرنسيين والانكليز في كل من الهند الصينية وماليزيا والجزائر وغيرها(١) ، نظرا لافتقار الامريكيين الى هذا النوع من الخبرات آنذاك . صدر النظام المطلوب ضمن المهلة المحددة ، ولكن تطبيقه لم يؤد الى نتائج مرضية كما أثبتت حرب فييتنام ، لأن الجيوش النظامية تقف عاجزة حيال هذا النوع من الحروب اذا لم تضرب دون تمييز ولم تحرق الاخضر واليابس .

– بعد ذلك بقليل ، سقطت القنبلة الثانية التي حطمت حصون أوروبا التي دأبت ادارة الرئيس السابق أيزنهاور على اقامتها بشق الانفس حول السلاح الذري التكتيكي في « ليڤنوارث » .

ظاهريا ، كانت الفكرة سليمة تماما ، فهي التي أوحت باستراتيجية « الرد المرن » التي تشير بحق الى عدم كفاية عقيدة « الرد المكثف » لحل كافة المسائل المطروحة أمام حلف شمال الاطلسي ، الا أنها وضعت السلاح النووي التكتيكي في قفص الاتهام ، فتخطت بذلك حدود المنطق والمعقول ...

بقي دور الطيران الاستراتيجي بقنابله الهيدروجينية أساسيا لردع الخصم عن مهاجمة أمريكا ، ولكنهم سعوا الى اكماله بنظام قادر على التصدي للتهديدات

(١) – من هذا يتضح أن ما يسميه الامريكيون « حرب عصابات » وتخريب ، هي حروب التحرير الوطنية التي تخوضها الشعوب ضد المستعمرين أو الانظمة الحاكمة العميلة .

(المترجم)

الاخرى دون الاضطرار بصورة الزامية للجوء الى السلاح النووي التكتيكي ، الذي يؤدي بالضرورة الى التصعيد الآلي والدمار الشامل .

وهكذا جاءت السياسة الجديدة لتقول بأن الآلة لا يمكنها الحلول محل الرجال ، وهذا يتطلب أن يقام في أوروبا سد من الصدور البشرية أولا في وجه المعتدي ، تماما كما حدث في حربي ١٩١٤ - ١٩١٨ و ١٩٣٩ - ١٩٤٥ . أما الاسلحة النووية فتبقى مخزنة في أوروبا بهدف الردع فقط ، ولا تستخدم الا بأمر من رئيس الولايات المتحدة اذا ساءت الاحوال . ان هذا يعني بوضوح لا لبس فيه ولا غموض أن أية حرب تنشب على المسرح الاوروبي لا بد أن تبدأ بالاسلحة التقليدية وتنتهي بالذرة اذا صدر الامر بذلك من البيت الابيض . لذلك طلب الى خبراء « ليفنوراث » أن يقوموا بوضع عقيدة تكتيكية تنسجم مع المستلزمات السياسية ، الامر الذي جعل التكتيكيين يقفون حائرين مشدوهين .

جمع الجنرال « جونسون » كوادره وعرض على الشاشة أمامهم صورة مسدس ببكرة مفتوحة تحتوي على خمس طلقات زرقاء وواحدة حمراء ، ثم قال لهم بالحرف الواحد : « لدينا هنا ست طلقات : خمس منها تقليدية وواحدة نووية . اذا طلب الي أن احارب بالزرقاء ، فأنا أعرف كيف أقاتل على طريقة الحرب العالمية الثانية . واذا طلب الي أن أحارب بالحمراء ، فأنا لا أضمن تماما أنني سأعرف كيف أقاتل ، ولكننا نفكر ونعمل على هذا الاساس منذ سنوات على الاقل . واذا كان باستطاعتي مزج الزرقاء والحمراء كيفما أشاء ، فهذا أمر طبيعي تماما لأن كافة الاسلحة ضرورية ، ومن البدهي ألا تستخدم الاسلحة الذرية ضد دورية ضلت الطريق . الا أن ما لا أعرفه ولا يمكن لأحد أن يعرفه ، هو وضع عقيدة تكتيكية دون أن أعرف مسبقا على أية طلقة يجب أن أعتمد بصورة مؤكدة . في الحقيقة ، لا توجد عقيدة «للروليت» الروسية ، والعقيدة الوحيدة الذكية تكمن في عدم اللعب مطلقا » ...

لا تبنى عقيدة تكتيكية على رمال سلاح غير مضمون . فعندما لا نعرف أصلا اذا كان السلاح الرئيسي سيستخدم ، كما لا نعرف أين ومتى ، فبأية معجزة نعرف كيف ؟ انها مهمة مستحيلة ولا شك ...

كيف يمكن تصور أسلوب استخدام القوات التكتيكية اذا كان أحد عوامل المناورة الاساسية ، وهو عامل « النيران » ، يمكن أن يتغير متراوحا بين واحد وعشرة آلاف ؟ للدفاع عن جبهة ضد أي هجوم ، لا بد من كتلة من المقاتلين المسلحين بالوسائط الكلاسيكية أو السلاح النووي . في الحالة الاولى ، اما أن يباد هؤلاء المقاتلون اذا استخدم المهاجم الاسلحة النووية ، أو سيتم خرق صفوفهم نتيجة صدمة الفرق المدرعة . عندئذ ، سيؤدي الارتباك والاختلاط الحتمي بين الوحدات الصديقة والعدوة الى منع المدافعين من استخدام نيرانهم النووية . لذلك يجب أن نعرف مسبقا نوع اللعبة التي سنلعبها قبل أن نتمكن من وضع خطط الدفاع وطرق استخدام القوات وعقيدة القتال أثناء فترة السلم .

ان اختلاف المعايير ، وخاصة عامل النار ، قد أصبح كبيرا لدرجة لم يعد يمكن معها التوفيق ، بالنسبة للمدافع على وجه التحديد ، بين العقيدة التقليدية والعقيدة النووية . لذلك من المستحيل وضع عقيدة موحدة تنفع في كافة الحالات ، وهذه بدهية لا يحتاج ادراكها الى معرفة عميقة في التكتيك .

أما بالنسبة لتعدد تكافؤ التشكيلات العسكرية ، فقد عبر عنه الجنرال « هاملتون هوز » في مجلة الجيش سنة ١٩٦٣ (معلقا على عقيدة الرد المرن وما تستلزمه من تشكيلات كبرى صالحة لكل شيء) بصورة أخرى تمثل حاملة طائرات شراعية ، قادرة على العمل بواسطة الهواء والوقود والمحرك النووي ، ولكنها لن تعمل في الواقع كمركب شراعي ، بل ستكون حاملة طائرات تافهة .

رغم كل الاعتراضات ، ظل الساسة الامريكيون متمسكين بمفهوم الرد المرن خوفا من أسطورة التصعيد . وفي عام ١٩٦٧ ، لم يكن أمام مجلس حلف الاطلسي من خيار سوى تبني هذه العقيدة رسميا بعد أن انسحبت فرنسا من هذه اللعبة المستحيلة . أما بالنسبة للعسكريين ، فان عهد الكتائب القديم يظل عهد الترفيع والامجاد البطولية والاوسمة ... فلماذا ننتظر منهم اذن أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك ؟...

لم تبق في الواقع سوى حفنة قليلة تتابع النضال . وهكذا أفسح المجال واسعا أمام الفرق الثقيلة التي أصبحت كلاسيكية جدا بثلاثة ألويه ، كما سحب السلاح « دايفي كروكيت » من الخدمة بعد فترة وجيزة من انتشاره في أوروبا ، وأعيد بحذر الى الولايات المتحدة . كذلك أحنى العسكريون رؤوسهم وفق التقاليد ، طالما أن السياسة يضعها المدنيون رغم اختلاطها بالتكتيك بشكل لا شعوري . في الغرب ، كان الكثيرون يسخرون من « ليسينكو » الذي ادعى بأن على علم الاحياء أن يتمشك مع توجيهات الحزب الشيوعي ، بينما يصر الغربيون في الوقت نفسه على أن تخضع الاستراتيجية والتكتيك والتكنولوجيا للتوجيهات السياسية ...

في تلك الفترة بالذات ، كان الرئيس « كينيدي » يقود حملته الكونية ضد الانتشار « الافقي » للاسلحة النووية لدى الآخرين ، وضد الانتشار « العمودي » لديه ، معتبرا أن تعميم السلاح النووي على مستوى وحدات المشاة الصغرى اخلالا بالوعود التي قطعها على نفسه خلال حملته الانتخابية . لذلك ، وتمشيا مع الحرص الشديد نفسه ، تم ايجاد نوع من المفاتيح السرية البالغة التعقيد لضمان عدم قيام أي جنرال مهووس باعلان الحرب النووية .

وهكذا ازداد « أشراف » الحكومة على الاسلحة النووية لدرجة تعقدت معها الامور كثيرا ، وأصبحت هذه الاسلحة مجردة من فائدتها العمليانية . في عهد أيزنهاور ، كان الرئيس يعطي « الضوء الاخضر » مرة واحدة ثم يترك للعسكريين حرية استخدام كافة وسائطهم وفق ما يتطلبه الوضع على الارض .

أما اليوم ، فنظام العمليات (FM 100-16) يفصل كليا بين العمليات النووية وغيرها ، كما ينص على أن رئيس الولايات المتحدة هو الذي يوعز شخصيا باطلاق الرشقات النووية واحدة تلو الاخرى على ضوء الموقف التكتيكي الذي يقدره من البيت الابيض !... وفق هذا النظام ، تحتاج المدفعية الى ما لا يقل عن عشرين ساعة لكي تطلق القذيفة النووية بانتظار وصول الموافقة عن طريق التسلسل !... خلال هذا الوقت ، يكون الهجوم المدرع قد حقق أهدافه أو توغل داخل ترتيب الخصم لدرجة يستحيل معها استخدام السلاح النووي .

في « ليڤنوارث » ، وضعت في الادراج كافة التمارين التي كانت معدة على أساس استخدام السلاح الذري التكتيكي سنة ١٩٦١ ، كما تقلصت نسبة التمارين النووية من ١٠٠٪ الى ٦٪ . وأغلب الظن أن الجيش الامريكي وجيوش حلف الاطلسي قد أصبحت اليوم عاجزة عن قيادة معركة نووية لانها لم تدرسها بصورة كافية منذ خمسة عشر عاما .

بظهور عقيدة « الرد المرن » ، عمدت الولايات المتحدة ، وفي اثرها حلف شمال الاطلسي ، الى ادارة ظهرها للتكنولوجيا النووية الحديثة للدفاع عن أوروبا ، بل عن الولايات المتحدة نفسها . وما زالت الضغوط الامريكية مستمره على أوروبا دون نجاح ، ولكن دون توقف ، لدفعها في طريق تعزيز قواتها الكلاسيكية منذ عهد الرئيس كينيدي . في الحقيقة ، يبدو أن أمريكا تخشى أسلحتها (بسبب شبح التصعيد) أكثر مما تخشى الجيش الاحمر الذي لا يهددها بصورة مباشرة . أما الاوروبيون فيخافون مثل أمريكا أو أكثر من الغزو السوفييتي بالوسائط الكلاسيكية ، ويسعون جاهدين لتصديق فعالية المظلة النووية الامريكية حتى لا يدفعوا الثمن الباهظ لزيادة قواتهم على حساب استقرارهم الاقتصادي والسياسي ، لأن حجم الاسلحة التقليدية المطلوبة منهم ، والقادرة على خلق توازن مع قوات حلف وارسو ، من شأنه تعريض أنظمتهم لخطر الحركات الثورية الداخلية ، التي يعرف الخصم تماما كيف يستغلها بمهارة فائقة ضمن اطار استراتيجيته الشاملة .

الا أن الضمانة النووية الامريكية لن تحمي أوروبا حتى في حال الوفاء فعلا بالعهود والالتزامات . فقد قضت عقيدة الرد المرن قضاءا مبرما على الفعالية العسكرية لـ (٧٠٠٠) سلاح نووي في حلف الاطلسي ، وذلك بتقويض أسس استخدامها ، وبقيام السياسة بتخريب التكتيك .

اذا كانت « السياسة هي فن الممكن » ، فان أول خطوة يجب اتخاذها هي معرفة ما هو ممكن اليوم لاعادة التوازن العسكري ؛ من الممكن اليوم اعادة بناء الحصون العسكرية لاوروبا بعد أن تداعت معظم أسسها .

* * *

غادر الجنرال « جونسون » كلية «ليڤنوارث» وتوجه الى البنتاغون بعد فترة وجيزة من كارثة « الرد المرن » . لقد حرص ، كغيره من كبار الضباط ، على عدم نشر تحفظاته الشخصية حول الاستراتيجية الامريكية رغم عدم قناعته بها كما رأينا سابقا . لذلك رفع فيما بعد الى رتبة جنرال بخمس نجوم (فريق)، ثم عين رئيسا لاركان الجيش الامريكي ، حيث أصبحت اهتماماته أبعد ما تكون عن الحرب النووية التكتيكية ، لأن المهم آنذاك كانت حرب فيتنام التي ابتلعت آلاف الشبان الامريكيين . وهكذا ظل جنوب شرق آسيا يلتهم مليارات الدولارات من المخصصات العسكرية الامريكية دون طائل ، في حرب خاسرة سلفا ضد عدو يعمل في الادغال ، لا تنفع حياله الآلات والالكترونيات والقاذفات (ب ــ ٥٢) . لربح هذه الحرب ، كان لا بد من توفر الارادة السياسية واجراء انزال في « هانوي » نفسها لحرمان العدو من « المحراب » الذي قام فيه على مهل بتنظيم الهجوم النهائي على الجنوب . كما شوهدت السفن السوفييتية تمر تحت سمع وبصر البحرية الامريكية لكي تنقل الاسلحة والمعدات الى ميناء « هايفونغ » .

هنا أيضا أدى شبح التصعيد الى شل العملاق الامريكي في نوع من الرد المرن الآسيوي .

بالتوازي مع هذا الاتجاه ، نجح الرئيس كينيدي في متابعة هدفه فيما يتعلق بالقوات الاستراتيجية ، التي انطلقت عام ١٩٦٠ في صراع مع الزمن لسبق السوفييت . وفي عام ١٩٦٦ ، تحقق الهدف وأصبح لدى أمريكا (١٠٠٠) صاروخ « مينوتمان » و (٤١) غواصة نووية من نوع « بولاريس » . عندئذ أعلن « مكنامارا » على الملأ أن الروس لا يستطيعون مجاراة الولايات المتحدة في هذا المجال ، لذلك قرروا الاكتفاء بالمركز الثاني . بهذا تم ضمان التفوق الاستراتيجي الامريكي كنهاية للمطاف ، وأصبح غزو القمر قاب قوسين أو أدنى . . .

قبل ذلك بعامين ، سنة ١٩٦٤ ، تنبأ « مكنامارا » نفسه بانتهاء حرب فييتنام وعودة الجنود الامريكيين في عيد الميلاد من العام نفسه . الا أن نبوءته الجديدة لم تصدق أيضا كسابقتها . **منذ عام ١٩٦٨ ، كشفت الاقمار الصناعية**

الامريكية في الاتحاد السوفييتي انتشارا لقواعد الصواريخ يثبت أن الروس لم يقرروا مطلقا الاكتفاء بالمركز الثاني كما تنبأ « مكنامارا » من قبل ... بل دلت وتيرة الانتشار على أنهم سيحصلون قريبا على المركز الاول .

ما لبث « مكنامارا » أن انتقل ليجرب حظه في مكان آخر هو « البنك الدولي » ، بعد ان اكد قبل رحيله أن الطيران الاستراتيجي والفواصات النووية يضمنان ردعا تاما للاتحاد السوفييتي ، وأنه لم تعد هناك ضرورة لنشر الصواريخ المضادة للصواريخ ، الباهظة التكاليف ، لأن التهديد بالردود الانتقامية المكثفة ، ضمن اطار استراتيجية « التدمير المتبادل الاكيد » ، يضمن **توازن الرعب دون أية حاجة للدفاع الايجابي أو السلبي .**

بهذه الاستراتيجية الجديدة ، تهاوى ما تبقى من حصون الدفاع التكتيكي ضد القوات البرية السوفييتية في أوروبا ، مما دعى « كيسنغز » للاعتراف علنا في « بروكسل » عام ١٩٧٩ بعدم كفاية المظلة الامريكية لحماية أوروبا الغربيـــة .

مغامرة اتفاقيّات «سالت»

عندما ثبت أن الروس لم يقنعوا بالمركز الثاني الذي وضعهم فيه السيد « مكنامارا » بصورة دائمة ، أصبح لا بد من عمل شيء ما . ولكن ما هو هذا الشيء ؟ هل يطلق برنامج جديد للاسلحة الاستراتيجية في الوقت الذي كانت فيه صواريخ « مينوتمان » الالف وال (٤١) غواصة « بولاريس » كافية لقتل الروس عشر مرات ؟ وذلك في الوقت الذي كانت فيه حرب فييتنام تبتلع سنويا عشرات المليارات من الدولارات ؟ لا شك في أن من الاسلم اللجوء الى المفاوضات في محاولة لوقف انتشار الصواريخ السوفييتية التي كانت تخرج من المصانع بوتيرة مذهلـة ...

وهكذا ، طالما أن الولايات المتحدة لم تتمكن من المحافظة على المركـز الاول ، فمن الاجدى عدم فقدانه وتقاسمه مع الروس على الاقل . لذلك كان لا بد من قبول التعادل لوقف سباق التسلح الذي بدأ يأخذ أبعادا رهيبة .

من هنا ولدت اتفاقيات « سالت » التي وافق الروس على فكرتها دون تردد . على الصعيد « الفلسفي » ، كان الامريكيون يتوخون منها انهاء « المباراة » بالتعادل الاستراتيجي وضمان التوازن عن طريق « التدمير المتبادل الاكيد » ، أي تبادل الرهائن (مئة مليون مواطن لدى كل طرف) ، وهذا رقم يكفي لكي يجعل الطرفين يسلكان جادة العقل والتعقل .

منذ ذلك الحين ، أصبح الاتفاق ممكنا بين الطرفين على تجنب النفقات الزائدة كعدم الاستمرار في نشـر الصواريخ المضادة للصواريخ ، الباهظـة التكاليف ، والعاجزة عن تأمين دفاع محـكم ، خاصة منذ ظهور الصواريخ المتعددة الرؤوس . خلاصة القول أن محاولة حماية السكان أصبحت دليـلا على سوء النية والاخلال بالاتفاق الثنائي .

أعتقد الامريكيون بأن الروس كانوا يشاركونهم نفس الفلسفة . الا أن « كوسيفين » أعلن أمام الملأ استغرابه لماذا يعتبر نشر الصواريخ المضادة للصواريخ ، والذي يهدف الى انقاذ مليون روسي ، أكثر عدوانية ولا أخلاقية من انتشار صواريخ عابرة للقارات ، تستطيع قتل مليون أمريكي ؟

في عام ١٩٦٩ ، أعلن « ريتشارد نيكسون » أنه « لا يحق لرئيس الولايات المتحدة أن يحرم المواطنين الامريكيين من هذه الحماية » . الا أنه ما لبث أن انضم الى مؤيدي فلسفة « التدمير المتبادل المؤكد » ، وحصل في عام ١٩٧٢ على اتفاقية سالت التي ضمنت له ، مع الانسحاب من فيتنام ، فوزا ساحقا في الانتخابات .

بعد اتفاقية « سالت ــ ١ » ، تم تفكيك عدد كبير من الصواريخ المضادة للصواريخ ، لأن الاتفاقية لا تسمح بوجود أكثر من ١٠٠ صاروخ لدى كل طرف . كذلك أصبح عدد الطائرات المطاردة لا يتجاوز (٣٠٠) طائرة . في هذه الحالة أيضا لم تعد هناك حاجة لتدابير الدفاع السلبي في نظر الادارة الامريكية ...

وهكذا اختارت أمريكا طائعة تفكيك دفاعاتها ، معتقدة بأن التهديد بالردود الانتقامية للطيران الاستراتيجي يكفي لضمان أمن المحراب الامريكي . قد يكون هذا الاعتقاد في محله بالنسبة لامريكا ، ولكنه لا يكفي لاية مهمة أخرى خارجية .

من الواضح أن الروس لا يستطيعون القبول بهذه الفلسفة لأن تجريد بلادهم من دفاعاتها يجعلها عرضة لاخطار أخرى من جهات مختلفة كالصين وفرنسا وانكلترة على سبيل المثال . صحيح أنهم قبلوا بتقليص صواريخهم المضادة للصواريخ الى ١٠٠ صاروخ ، ولكنهم لم يدمروا الفائض ، كما عمدوا الى تحديث الـ (١١٠٠٠) صاروخ م/ط بالاضافة الى الـ (٢٥٠٠) طائرة مطاردة مستعدة دائما للذود عن أرض الوطن ضد أي اعتداء جوي من أي مصدر جاء . أ ضف الى ذلك قيامهم بتكثيف برنامج الدفاع المدني الذي لم تتطرق اليه اتفاقية « سالت » مطلقا .

في مثل هذه الشروط ، لم يبق من المظلة النووية الامريكية (التي أغفت أوروبا في ظلها زمنا طويلا) سوى العصا وحدها . لذلك يمكن القول أن عقيدة

« الرد المرن » قد وضعت اوروبا تحت رحمة الجيش الاحمر ، كما وضع « الاشراف على الاسلحة » أمريكا بمتناول الصواريخ السوفييتية .

هذه هي حصيلة عشرين عاما من تخبط الاستراتيجبة الامريكية . ولا شك في أنها مظلمة ، فهاهو الغرب ينكشف عسكريا مرة أخرى ، كما حدث في حزيران من عام ١٩٤٠ ، ليس بسبب نقص الوسائط بل لنقص واضح في التفكير .

* * *

٢ - لا جديد في الشرق ...

استمرار الاستراتيجية السوفياتية

مهما كانت تحفظاتنا على أنظمة الحزب الواحد ، لا بد لنا من الاعتراف لها بحسنة طالما أثبتها التاريخ : وهي سهولة تفوقها في الميدان العسكري على الانظمة الديموقراطية . فتوزيع الموارد بين السمن والمدافع يتبع لارادة الحكومة وحدها ، التي تستطيع اختيار ٥٠٫٠٠٠ دبابة و ٥٫٠٠٠ سيارة بدلا من ٥٫٠٠٠ دبابة و ٥٠ مليون سيارة . كما تستطيع عقد الاتفاقيات الدولية دون ازعاج من قبل الصحافة أو المعارضة أو البرلمان أو الرأي العام . قد لا يكون الشعب حرا ، ولكن الحكومة حرة بالتأكيد . والعكس دائما صحيح : أي أن الحكومة ليست حرة عندما يكون الشعب حرا . وهكذا نجح « أدولف هتلر » خلال ست سنوات فقط في وضع جهاز عسكري كاد يحتل العالم . ومن حسن حظ الغرب ، أن هذا النظام اصطدم بنظام لا يقل عنه صلابة ، وهو نظام « ستالين »(١) .

مما لا شك فيه أن الاتحاد السوفييتي ، كغيره من البلدان القارية ، محق في اهتمامه الدائم بأمنه . فتاريخه حافل بسلسلة من الغزوات كلفه آخرها ٢٠ مليونا من الضحايا ، بينما لم تتعرض الارض الامريكية لأي غزو خارجي حتى الآن . وقد دخلت الخدمة الالزامية كجزء لا يتجزأ من العادات والتقاليد ، حيث أصبحت مدرسة للتدريب والتوجيه العقائدي لفترة تتراوح بين ٢ ــ ٣

---

(١) ــ رغم قسوة ستالين المعروفة ، لا تخفى على القارىء هنا قسوة المقارنة بما فيها من ظلم فاضح وتحيز جلي . **(المترجم)**

سنوات . لذلك أصبحت بالنسبة للاتحاد السوفييتي مؤسسة عسكرية وسياسية أساسية لا تحتاج أهميتها لبرهان في بلد يضم ٢٥٠ مليونا من الشعوب المختلفة . حاول « الرأسماليون » الغربيون اسقاط هذا النظام الشيوعي بعد الحرب العالمية الاولى ، كما حاولوا حصاره بعد الحرب العالمية الثانية . أضف الى ذلك أن عقيدة الردود الانتقامية المكثفة ، في عهد الرئيس أيزنهاور ، لم تكن عربون صداقة ولا بادرة اطمئنان للسوفييت ، خاصة وأن موسكو كانت الهدف المفضل الذي دمر آلاف المرات في مشاريع القيادة والاركان الامريكية . أخيرا وليس آخرا ، هناك مليار من الصينيين يهددون الاتحاد السوفييتي متعاونين تكنولوجيا مع الدول الرأسمالية وربما مع اليابان عما قريب ، مشكلين « عدوا أصفر » علاوة على « العدو الابيض » .

كل هذا يفرض على السوفييت جهدا عسكريا هائلا يسحق اقتصاده . ولا شك في أن العدو رقم (١) يبقى الولايات المتحدة الامريكية ، رئيسة « المعسكر الامبريالي ــ الرأسمالي » ، التي كان تدخلها في القارة الاوروبية حاسما خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية ، والتي لم تعد قادرة على الانزال المألوف في هذا العصر النووي . لذلك ، وبغض النظر عن النوايا السلمية أو العدوانية ، يظل الاتحاد السوفييتي ملزما جغرافيا باستراتيجية هجومية لفك الحصار وكسر الطوق ، وهذا واقع لا يمكن انكاره أو تجاهله .

أما فلسفتهم الاساسية فهي بسيطة وسليمة بقدر غموض وتعقيد الفلسفة الغربية ؛ انها تتلخص بالعبارة التالية : « لكي ترتاح ، يجب أن تكون الاقوى عسكريا في كافة المجالات » . صحيح أن الروس لا يتحدثون عن « الردع » ، ولكنهم حصلوا عليه كنتيجة منطقية طبيعية : اذ لا يمكن لأحد أن يفكر الآن في غزو الاتحاد السوفييتي . كيف لا وهناك ثلاثون مليونا من الجنود الجاهزين للتعبئة خلال شهر واحد ؟...

* * *

تطوّر الوسائط

قبل الحرب ، كان العلماء السوفييت يساهمون بنشاط في الابحاث الذرية مع زملائهم الاوروبيين الالمان والانكليز والفرنسيين . لذلك كانت مبادىء الانشطار النووي مألوفة لديهم .

وعندما نجح الامريكيون ، في مشروع « منهاتن » ، بالسيطرة على النواحي التقنية والتعمق فيها ، لم يستطيعوا مقاومة الاغراء الذي كان يدفعهم لنشر انجازاتهم في التقرير الشهير الذي سمي « بتقرير سميث » ، والذي نشرته القوات المسلحة الامريكية باسم الجنرال « كرونس » في شهر ايلول من عام ١٩٤٥ . كان هذا التقرير ، غير السري ، يصف المراحل والطرق المتبعة ، الجيدة منها والسيئة ، لاغناء اليورانيوم والحصول على البلوتونيوم . نشر هذا التقرير وبيع في الاسواق ، لذلك كان من الطبيعي أن يتلقفه الباحثون السوفييت قبل سحبه الذي جاء بعد فوات الاوان . وهكذا ، نظرا لكون المبادىء معروفة ولأن الاساليب والمراحل قد نشرت ، أصبح من السذاجة أن نأمل في بقاء النيران النووية وقفا على الجانب الامريكي وحده . أضف الى ذلك انتقال عدد من المساهمين في مشروع « منهاتن » الى الطرف الآخر من أمثال « كلوز فاش » وسواه . لذلك لم تمض سوى أربع سنوات حتى أصبح هناك تكافؤ بالنسبة للقنبلة الذرية .

أما بالنسبة للقنبلة الهيدروجينية ، فقد فجرت القنبلة الاولى من قبل السوفييت في نفس الوقت الذي فجرت فيه القنبلة الامريكية وبمستوى تقني أفضل .

وأما في مجال الفضاء ، فقد أطلق أول قمر صناعي سوفييتي في شهر تشرين الاول من عام ١٩٥٧ . بعد هذا الانجاز ، سجل السوفييت نقطة أخرى عندما أنزلوا على القمر أول أداة مرسلة من الارض .

ما لبث السوفييت أن عمدوا تدريجيا الى تشكيل قيادة كبرى للصواريخ كنوع من المدفعية المتطورة العليا . الا أن الجهد الهائل الذي بذله الرئيس « كينيدي » هو الذي سمح للامريكيين خلال بضع سنوات ، من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٦ ، بتحقيق تفوق على الروس وكسب رهان السباق نحو القمر . ولكن هذا لا يعني مطلقا ، كما توهم البعض ، أن موسكو قد رضيت بالمركز الثاني في هذا المجال ، أو أنها كانت تعاني من بعض التخلف التكنولوجي النسبي . أضف الى ذلك أنه كان يكفي العلماء السوفييت أن يقرؤوا بعناية مجلة « أفيايشن ويك » و « تكنولوجيا الفضاء » وغيرهما من المنشورات الامريكية التي تباع في أكشاك الصحف لكي يقفوا تماما على وضع التكنولوجيا المعادية وطموحاتها ومشاريعها ونجاحاتها وأخطائها .

انطلاقا من التفوق الطبيعي في مجال القوات البرية ، نجح الروس خلال أقل من عشرين عاما في تعويض تخلفهم بالمدفعية الثقيلة ، مستفيدين من الامجاد الوهمية التي كان خصومهم يدعونها بصلف وغرور ، والذين وقعوا طائعين في فخ « سالت » ... وقد قال لينين : « يجب أن تهدف مفاوضاتنا حول نزع السلاح الى تجريد البورجوازية من أسلحتها لتسليح البروليتاريا » .

بعد اطلاق القمر الصناعي السوفييتي « سبوتنك » ، اتفق الروس والامريكيون على ايقاف التجارب النووية كما رأينا آنفا . وخلال هذه الفترة بالذات ، بدأ الامريكيون يناقشون مسألة قنبلة النيوترون ، كما شرع الروس في اعداد أكبر سلسلة من التجارب النووية التي شهدها العالم منذ عام ١٩٦١ ، خارقين بذلك اتفاقية وقف التجارب . وهكذا تم اختبار اضخم وأقوى العيارات والاوزان (٨٥ تجربة على وجه الدقة) حتى وصلوا الى قنبلة الـ « ١٠٠ ميغا طن » . استأنف الامريكيون تجاربهم ثم وقعوا ، في عام ١٩٦٣ ، اتفاقيات موسكو التي حرَّمت التجارب في الجو ، لكي يلاحظوا بعد عامين (أي

بعد فوات الاوان) أن ظواهر جديدة يمكن أن تظهر ، فوق درجة معينة من القوة ، من شأنها تقديم امكانيات تطبيقية هامة في المجال المضاد للصواريخ . هـذا ما أكده آنذاك على الاقل بعض العلماء من أمثال « ادوارد تيلر » ، الذي أعلن أن الولايات المتحدة قد أوصدت على نفسها بابا سبق أن تخطاه الخصم .

بعد هذا بقليل ، جاءت معاهدة منع استخدام الفضاء للاغراض العسكرية لكي تضع حدا مبدئيا لسباق التسلح في هذا المجال الذي فتح آفاقا تطبيقية غير محدودة . بعد توقيع هذه المعاهدة مباشرة ، قام السوفييت بعرض قنبلتهم المدارية في الساحة الحمراء بموسكو ... ذهل الامريكيون واحتجوا بشدة ، الا أن الجواب كان بأن هذه القنبلة ليست في مدارها ، لذلك لا يوجد هنا أي خرق للنص الحرفي للمعاهدة ، كما لم يشكل الدفاع السلبي خرقا لنصوص اتفاقية « سالت — ١ » التي أغفلت التطرق الى هذا الموضوع ؛ كذلك كان الامر بالنسبة للصواريخ المضادة للاقمار الصناعية التي أنجزها السوفييت ، طالما بقيت هـذه الصواريخ على الارض ، ويمكن أن نقول الشيء ذاتـه عن الصواريخ (س . س . — ٢٠) أو القاذفـة فـوق الصوتيـة (باكفاير) ، التي لـم تخـرق سقف « سالت » طالمـا لم يركب عـلى الاولى طـابق ثالث ولم تزود الثانية بالوقود في الجو بشكل يمكن هذه الوسائط من بلوغ المحراب الامريكي . وهذا أمر طبيعي لأن الاتفاقية تشمل فقط الصواريخ التي يمكنها الوصول الى أراضي الطرفين . لذلك ، ووفقا للنصوص الحرفية ، فان الصواريخ الامريكية المتوسطة المدى ، والمتمركزة في أوروبا ، يجب أن تدخل ضمن نطاق الحظر لأنها تستطيع بلوغ أراضي الاتحاد السوفييتي ، بينمـا لا ينطبق هذا على مئات الصواريخ السوفييتية الموجهة ضد أوروبا الغربيـة لأنها لا تستطيع بلوغ الاراضي الامريكية ... وهكذا يستطيع الاتحاد السوفييتي مضاعفة صواريخه من نوع (س.س. — ٢٠) التي تغطي أوروبا الغربية كلها برؤوسها الثلاثية من عيار ٢٥٠ كيلو طن ، أو القاذفات « بكفاير » ، دون خرق النص الحرفي لاتفاقيات (سالت) . أما الولايات المتحدة فلا تستطيع أن تضع في اوروبا صواريخ من شأنها الوصول الى أراضي الاتحاد السوفييتي .

اذا أرادت (سالت ـ ٣) أو غيرها من المفاوضات أن تتطرق الى هذا الموضوع ، عندئذ يمكن اطالة المباحثات أو التحجج مثلا بأن « مدفعية مسرح العمليات » النووية تستهدف الصينيين ...

وهكذا تستمر أمام أعيننا عملية « نزع السلاح من البورجوازية » . أما فيما يتعلق بالاشراف على الحد من الاسلحة ، فالروس ما زالوا يرفضون التفتيش المباشر المحلي بحجة أن المراقبين سيكونون مجرد جواسيس . صحيح أن الرقابة يمكن أن تتم بواسطة الاقمار العسكرية ونقاط المراقبة الارضية . ولكن ، اذا كان باستطاعة هذه الاقمار التقاط صور ممتازة واكتشاف القواعد الصاروخية المنتشرة هنا وهناك ، أو احصاء عدد الدبابات ، الا أنه من المستحيل معرفة ماذا يوجد تحت السقوف ، أو معرفة ماذا يجري في المصانع . في هذا المجال ، لا شك في أن الرابح هو الاتحاد السوفييتي لأن المجتمعات الغربية المنفتحة مملوءة بالجواسيس والعملاء والصحفيين ...

خلاصة القول أن مباراة الشطرنج هذه ، التي بدأت في الستينات بين لاعبين غير متكافئين في القوة ، الاول حر في تحركاته والآخر شبه مشلول ، قد ضحت بالأمن على مذبح أمل هو أقرب الى السراب .

وأخيرا ، لا بد من التنويه هنا بأن الميدان ، الذي كان فيه السوفييت متخلفين بشكل واضح ، قد تبدل جذريا هو الآخر خلال العشرين سنة الاخيرة ، حيث أصبحت البحرية السوفييتية معادلة للبحرية الامريكية بفضل الجهد الكبير الذي بذله الاميرال « غورسكوف » في مجال التحديث بشكل خاص . وهكذا لم تعد البحرية الامريكية سيدة البحار المطلقة ، بل لحق بها الاتحاد السوفييتي ، كما فعل بالنسبة للمدفعية مع احتفاظه بتفوقه الواضح في مجال المشاة .

العقيدة

هذه هي لمحة سريعة عن تطور ميزان القوى في العالم خلال العشرين سنة الاخيرة . بقي علينا أن نستعرض الدور الذي ألقاه الروس على عاتق هذه القوات التي شكلوها منذ الحرب العالمية الثانية .

بالنسبة للقوات الاستراتيجية العابرة للقارات ، والتي تهدد الولايات المتحدة ، يتلخص دورها الاساسي بابطال الوسائط المقابلة . فقد أنشئت أصلا كرد فعل على استراتيجية الرد المكثف ، ضد فلسفة « الردع عن طريق الارهاب » ، والتي تستهدف ملايين السكان في الاتحاد السوفييتي . لذلك كان من الطبيعي أن يحذو الروس حذو الامريكيين في هذا المجال ، حيث نجحوا في ارهاب خصمهم على أكمل وجه . ولا شك في أن التمويه والتضليل قد لعبا هنا دورا أساسيا ، تماما كما فعل « خروتشوف » عندما لـوّح مهددا بصواريخ لم يكن يملكها بعد ، لكي يوقف تقدم الانكليز والفرنسيين أثناء العدوان الثلاثي على مصر ، خاصة وأنهم تورطوا في هذه العملية دون موافقة أمريكا .

في الواقع ، لم تؤمن الاستراتيجية السوفييتية مطلقا بعقيدة « الحرب الشاملة » التي نادى بها الايطالي « غيليو دوهيه » الذي تنبأ بأن الطيران وحده قادر على كسب الحرب عن طريق الخسائر التي يمكنه الحاقها في صفوف المدنيين . وحمدا لله أن الروس لم يعمدوا ، قبل الحرب العالمية الثانية ، الى استثمار أموالهم في مجال القاذفات الثقيلة بدلا من دبابات القتال . لو تم ذلك لخسروا الحرب وخسرناها معهم ، لأن دبابات هتلر « البانزر » ما كانت لتقف على أبواب موسكو نتيجة قصف برلين .

واليوم كالامس ، ما زالت العقيدة السوفييتية لا تؤمن بتدمير المدنيين لقيادة العمليات العسكرية . لذلك أدخلت الذرة في كتاباتها العسكرية ، ليس

كأداة للارهاب والرعب ، بل كسلاح حقيقي ثوري ، من شأنه تسهيل الانتصار الذي لا يمكن أن يضمنه سوى عمل القوات البرية والهجوم . خلافا لفلسفة الغرب التي تعتبر الحرب « غير معقولة » ، تتوقع الفلسفة السوفييتية أسوأ الاحتمالات وتستعد لها : « اذا هوجمنا ، يجب أن ننتصر ... » . وخلافا للفكرة السائدة في الغرب ، والتي تدعي بأن « كلاوزويتز » قد مات ودفن ، وأن الذرة قد غيرت كل شيء ، وأن الحرب قد فقدت كل معنى سياسي ، يستمر الروس في اعتقادهم « بأنه لا جديد تحت الشمس سوى بعض الاسلحة » . هذا الغموض في النظرة الى فكرة الردع ، هو الذي جعل من الاتحاد السوفييتي القوة العسكرية الاولى في العالم . فالروس واثقون تماما من أن الاستعداد للحرب على الطريقة القديمة كفيل بضمان السلام .

كان « ونستون تشرشل » يقول : « مهما كانت ثقتنا بمفاهيمنا متينة ، يجب علينا أن نأخذ مفاهيم الخصم دائما بعين الاعتبار » . لنترك الحديث لرجال الاستراتيجية والتكتيك السوفييت ، كي نكتشف الهوة السحيقة بين مفاهيم الشرق والغرب .

فالمارشال (ميلوڤيدوف) يقول : « لقد أصبح من المألوف تزوير طبيعة الحرب باسم ظهور السلاح النووي . وهناك موقف سلبي واضح تجاه نظريات الماضي وخبراته ، مع ميل شديد نحو رفض مبادىء واستنتاجات العهد قبل النووي ... وهكذا نرى منظّري الامبريالية يحاولون هدم النظريات الماركسية ــ اللينينية التي تركز على الرابطة بين السياسة والحرب ، ويقللون من قيمتها في هذا العصر النووي . انهم يقولون بأن السلاح الجديد قد بَدل جذريا العلاقة بين السياسة والحرب ، وأن الفكرة القائلة بأن الحرب استمرار للسياسة بوسائل عنيفة لم تعد صالحة » .

من الواضح اذن أن السوفييت لا يشاطرون الغربيين أفكارهم الرافضة لـ « ظاهرة الحرب » بحجة أن المتفجر الجديد قد جعلها مستحيلة . لذلك نراهم يستفيدون من التكنولوجيا الجديدة بتكييفها مع الفلسفة التقليدية ، بدلا من السعي لايجاد فلسفة جديدة تبنى حول أسطورة هيروشيما التي لم تبدل الطبيعة البشرية .

وهكذا يؤكد المارشال (غريتشكو) بقوله : « ان الاسلحة النووية قد أصبحت عاملا حاسما في التطور الثوري للمسائل العسكرية » . فلا بد اذن من مواجهة هذا الواقع الحديث . لذلك سينصب الجهد السوفييتي كله من أجل ادخال هذا العامل الحاسم في المعادلة العسكرية . فالسلاح النووي ليس أكثر من أداة جديدة في منتهى القوة ، قادرة على قلب سير العمليات العسكرية . وقد كتب الجنرال (سبيتوف) يقول :

« الا أن هذه الثورة لا تقلب سلّم القيم في الانظمة العسكرية ، اذ أن القوات البرية في ساحة المعركة المقبلة ؛ ستظل تحدد مصير مجمل العمليات . الاخرى كلها على مساعدة هذه القوات في تنفيذ مهماتها » .

كذلك أعلن المارشال (بافلوفسكي) يقول : « لا شيء يمكن أن يحل محل القوات البرية في ساحة المعركة المقبلة ، ستظل تحدد مصير مجمل العمليات . لذلك سيترتب عليها هذا العمل الصعب ، وهو العثور على تجمعات العدو وتدميرها واحتلال الارض لاحراز النصر النهائي » .

يبدو من البدهي هنا أن احتلال أرض الغير وفرض الارادة على سكانها ، هو الذي يعطي الحرب مغزاها السياسي . فالحرب سيطرة واشراف ، وليست مجرد تدمير . ان هدفها ليس تحويل الخصم الى رماد ، أو تدمير المدن وذبح السكان ، فالتدمير الاعمى والمكثف ليس له معنى . لذلك لا نجد في أي مكان فكرة السحق الكامل للعدو عن طريق أسلحة التدمير الشامل ؛ فمهمة السلاح النيوتروني منع الخصم من أن يلعب هذه اللعبة الغبية والاجرامية . بهذا تبقى الحرب ضمن اطارها الكلاسيكي وحدودها التقليدية . ومن الغريب هنا أن نجد الماركسيين الملحدين أبطال المبادىء المسيحية .

على هذه الاسس الفلسفية ، وفق الجيش الاحمر بين « كلاوزويتز » والسلاح النووي . ان احتلال الارض وحده من شأنه اعطاء مغزى للحرب ، وهذا ما يجعل القوات البرية موجهة نحو الهجوم ، الذي لا يمكن بدونه « احراز النصر » . وهكذا لم تمت هذه الفكرة في الشرق ، خلافا للاعتقاد السائد في

الغرب بأن النصر لم يعد له أي معنى ، وان الجميع يخرجون خاسرين من المجابهة العسكرية . وهذا ما دعا الجنرال (زافيالوف) للقول :

« مما لا شك فيه أن الاسلحة النووية قد عززت دور الهجوم الذي يعتبر الشكل الحاسم للعمل العسكري » ، ثم يردف قائلا : « سوف تفتح طريق قوى الهجوم بواسطة النيران النووية » .

كذلك وصف الجنرال (كروبشنكو) طبيعة الهجوم كما يلي : « يمكن للمشاة الآلية الحديثة ، المزودة بالآليات المدرعة ، أن تعبر بسرعة مسافات كبيرة ، ثم تزج في المعركة دون أن تترجل ، بالتعاون الوثيق مع الدبابات ، كما يمكنها اجتياز الحواجز المائية وتطوير الهجوم بوتيرة متسارعة بعد الرمايات النوويـــة » .

خلاصة القول اذن ، أن الذرة تفتح الطريق الذي تتوغل فيـــه الفرق المدرعة والميكانيكية . انه استخدام حديث لمبدأ « غودريان » ، حيث تضاف قوة النيران النووية على « الوصفة » القديمة .

الا أن هناك عائقا خطيرا يعترض نجاح القوات البرية ، ما زال السوفييت يعكفون على دراسته ، وهو أنه اذا كان باستطاعة الاسلحة النووية أن تفتح الطريق للهجــوم ، فان باستطاعتها اغــلاقه أيضا . لذلك كتب المارشــال (سوكولوفسكي) ، في كتابه الشهير « الاستراتيجية العسكرية » ، يقــول : « سيكون الهدف الرئيسي للقتال على مسرح العمليات هو تدمير الأسلحـة النووية للعدو ؛ بدون ذلك ، من المستحيل قيادة العمليات العسكرية بنجاح » . وفي عام ١٩٧٠ ، كتب العقيد (سيدورنكو) يقول : « ان الهجوم النووي هو هجوم فوري وفي آن واحد على كامل عمق الانتشار المعادي بهدف :

١ ــ تدمير الوسائط النووية .
٢ ــ تدمير الوحدات المقاتلة وأجهزة قيادتها
٣ ــ عزل ساحة المعركة » .

بهذا يعتبر الهدف واضحا تماما : لا نصر للقوات البرية اذا لم تتم أولا ازالة العائق الرئيسي لتقدم هذه القوات ، وهو السلاح النووي التكتيكي .

لا بد من تذكر هذا جيدا من أجل تتمة هذا البحث ، لأننا سنجد هنا الوقاية من الخطط العسكرية السوفييتية ، وعلى هذه الفكرة بالذات سنبني أسلوبنا للردع .

خلاصة القول هنا أن الروس قد أدخلوا السلاح النووي التكتيكي تماما ضمن عقيدتهم الهجومية ، في الوقت الذي قام فيه الامريكيون ، عن طريق « الرد المرن » بسحب تدريجي لهذا السلاح من عقيدتهم الدفاعية .

ولكن ، طالما أن الامريكيين قد تركوا الشك يخيم على الاستخدام المحتمل لهذا السلاح « اذا ساءت الامور » ، واحتفظوا كمخزون في اوروبا ب (٧٠٠٠) سلاح أرسلت في عهد أيزنهاور ، فان أملهم بتجنب الحرب النووية عن طريق قبول المعركة التقليدية يبدو ضربا من الاوهام . فالتكتيكيون السوفييت لا يمكن أن يجازفوا بتلقي رمايات مثل هذه الترسانة نتيجة عدم تدميرها في مستودعاتها مسبقا .

ان مجرد وجود أسلحة نووية ، تابعة لحلف الاطلسي ، في اوروبا ، مهما كان الغموض الذي يكتنف ارادة استخدام الذرة ، يستلزم تدميرها مسبقا برشقة تفتح الطريق أمام الهجوم النووي .

خلاصة القول ان « الرد المرن » ، الذي يهدم العقيدة الدفاعية للحلفاء ، لن يؤدي على الارجح الى تأخير الحرب النووية الحتمية دقيقة واحدة ، بل سيؤدي فقط الى ضمان هزيمة الحلفاء .

* * *

الفصل الرابع

الحل

أسوار المدينة

من المؤسف حقا ، وهذا أقل ما يقال ، أن نجد القوة الصناعية الهائلة ، المادية والبشرية للامم الغربية ، المتفوقة بشكل كبير على مثيلتها في الامبراطورية السوفييتية ، في حالة ضعف نفسي وعسكري اذا ما قدر للحرب الثالثة أن تنشب لسبب أو لآخر . قد يكون من أسباب نشوب هذه الحرب أهتمام السوفييت باكمال النجاحات التي حققوها بالوسائل الاخرى ، يغريهم في ذلك تداعي العالم الغربي وتفسخه . الا أن هذا السبب ليس محتملا جدا في الوقت الحاضر ، حيث يبدو أن السوفييت قانعون بما يحققونه بصورة تدريجية ، خاصة وأن العملاق الصيني قد ينتهز أية فرصة مناسبة ، تضاف الى ذلك الخلافات الجدية داخل المعسكر الشيوعي نفسه .

أما السبب الآخر ، فقد ينجم عن انتفاضة الاحتضار الاخيرة للامبراطورية الغربية المتفسخة ، التي يمكن أن تلعب يائسة ورقتها الرئيسية : القوة العسكرية .

وأما السبب الثالث ، فيمكن أن ينجم عن تصاعد النزاعات الصغيرة في شتى أنحاء الكرة الارضية ، حيث تلعب مصالح المعسكرين الكبيرين الدور الاول في التحريض والتأجيج .

سوف نترك للمتخصصين في العلوم السياسية دراسة هذه التكهنات مكتفين بالقول ان شبح الحرب لم يختف نهائيا من الافق المنظور . اذا فشل الردع لا بد من القتال أو الاستسلام .

لذلك يمكن القول انه اذا كان هناك أي خطر ، فلا بد من اعادة تنظيم كامل للدفاع الغربي حتى لا يتهم المؤرخون القادمون الديموقراطيات الغربية بخسارة الحرب الثالثة ، ليس لنقص في الوسائط ، بل لضعف في التصور وعجز في التفكير . مما لا شك فيه أن « الاستراتيجية المجنونة » قد شلت دفاعات الولايات المتحدة وأضعفتها ، ووضعتها تحت رحمة الصواريخ السوفييتية ، كما ادى « الرد المرن » الى دك حصون أوروبا وتركها تحت رحمة الجيش الاحمر .

نحن لا نريد بهذا الكلام بث اليأس أو تثبيط العزائم ، بل الانتباه قبل فوات الاوان الى الخطر الداهم ، علما بأن الحل متوفر في نظرنا على الاقل . وهو اليوم أسهل تناولا من أي وقت مضى ، اذ يكفي الاستفادة من العلم والتكنولوجيا لابعاد الخطر الوحيد الذي يعطي العدوان والحرب مفزاهما : وهو **الغزو الارضي** .

وسنرى فيما بعد أن الدفاع يملك اليوم ولأول مرة أوراقا ليس لها مثيل سابق في التاريخ العسكري . فعندما يربح الدفاع ، تموت الحرب .

١ - وصايا « سون تزو »

كان الفيلسوف الصيني « سون تزو » يقول : « ان أفضل طريقة للتغلب على العدو تكمن في التصدي لاستراتيجيته » .

وقد أثبتت خبرات الحروب السابقة صحة هذا القول المأثور . فالمهم هنا هو ايجاد ثغرة في المفاهيم ؛ ولا شك في أن ثغرة « خط ماجينو » وغيره من الدفاعات الخطية الموروثة من الحرب العالمية الاولى ، جاءت عن طريق الطيران التكتيكي والفرق المدرعة . لقد وجد الالمان الثغرة وبنوا عقيدتهم على أساسها .

عندما نقلت حرب « غودريان » و « باتون » لتطبق في فييتنام أو الهند الصينية ، سمحت بالسيطرة على الارض ولكنها لم تسمح بالسيطره على الرجال. لقد عثر « ماوتسي تونغ » على الثغرة وبنى عقيدة جديدة سميت « الحرب الشعبية » ، انتصرت على آلات الغرب .

بين الدول النووية الكبرى ، ثبت فشل الردع عن طريق الرعب والرد الانتقامي المكثف ، حيث أصبح من الممكن خسارة كل شيء في اوروبا بدون اطلاق صاروخ استراتيجي واحد ... ولا شك في أن الثغرة الهائلة « لخط ماجينو » النفسي تقع في مستوى أخفض من مستوى الابادة المضادة للمدن . لقد رأى الروس هذه الثغرة وأصبحت قواتهم البرية جاهزة لاستغلالها .

بقي على الغرب أن يعثر بدوره على الثغرة في الاستراتيجية السوفييتية . وقد رأينا أن المنظرين الاستراتيجيين السوفييت أنفسهم يدلّوننا على هذه الثغرة ! فهاهو المارشال « سوكولوفسكي » يقول : « تعتبر العمليات العسكرية مستحيلة اذا لم تدمر مسبقا البطاريات النووية للدفاع » . هذه النقطة بالذات ، هي التي يجب استغلالها تماما ...

بهدف دراسة نظام جديد لدفاع حلف شمال الاطلسي ، يمكن توقع أسوأ الاحتمالات ، وهو الهجوم النووي المفاجىء . ومن خلال ذلك يمكن بطبيعة الحال التصدي لفرضيات أقل خطورة ، كالهجوم التقليدي الذي يصبح أقل احتمالا . لذلك لا بد من التصدي لاستراتيجية الخصم كما ينصح بذلك الفيلسوف الصيني « سون تزو » .

عندما نتصور هذا الدفاع ، سنستغل بمنتهى التصميم كل ما يمكن أن تقـدمه لنا التكنولوجيا النووية والتقليديـة من الآن فصاعدا . أما الفكرة الاساسية هنا ، فهي أن الدفاع ، بدون أية حجج سياسية أو عسكرية أو أخلاقية ، لن يستند مطلقا على مبدأ التضحية بالجنود كما حدث في عامي ١٩١٤ و ١٩٤٠ ، أو في « ديان بيان فو » . فالعلم الحديث قد سمح لنا أخيرا باحلال الآلات بفعالية محل صدور الرجال لوقف العدوان وقتل الحرب نفسها مع تجنب المجازر الرهيبة للماضي القريب .

لذلك يكفي أن نقبل مرة واحدة والى الابد بمعطيات تكنولوجيا الحاضر .

٢ ـ اختلال التوازن في القوّات البرّيّة

قامت مؤخرا المجلة العسكرية الفرنسية الرسمية « جيوش اليوم » بنشر كشف بالقوات البرية المتواجدة في أوروبا . ولا بد من التنويه هنا بأن المقصود كان القوات العاملة وليس تلك التي تمكن تعبئتها أثناء الحرب . فاذا أضفنا الى هذا الحجم الهائل كتلة الوسائط التي يمكن للسوفييت تعبئتها عند الحاجة ، يصبح الاستنتاج سهلا ، أو بالاحرى مظلما . ولا شك في أن الغرب لا يستطيع التعادل مع الفرق السوفييتية ، لذلك ألمح المقال اياه الى النتيجة المنطقية من وجهة نظره ، وهي اندحار قوات حلف الاطلسي وتراجعها باتجاه الغرب ، وكأنه لا توجد طريقة للنجاة سوى الانسحاب والفرار ...

ان هذا التفاوت في القوات البرية ليس وليد الامس ، بل هو قائم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . أما الاستنتاج الاول ، الذي يتبادر للذهن فورا ، فهو أن على الغرب أن يلجأ للدفاع في بداية النزاع ؛ فلكي نربح الحرب ، يجب الا نخسرها أولا ؛ بعد ذلك يمكن للحلف الغربي أن يحشد مزيدا كافيا من القوات لكي يفكر بهجوم معاكس عام ، شريطة أن يبقى في أوروبا رأس جسر واسع بما فيه الكفاية حتى لا يضطر الحلفاء لنطح رؤوسهم عبثا في جدار أطلسي جديد تحميه الاسلحة النووية . عندئذ تصبح « عملية أوڤرلورد » مستحيلة . أما بالنسبة للتوازن الكمي لهذا النوع من القوات ، والذي يطالب به الامريكيون منذ « الرد المرن » ، فمن المفضل عدم التفكير فيه في أوقات السلم . وقد رأينا سابقا أن هذا التوازن قد تحقق عن طريق القوة النارية التي نشرها « أيزنهاور » بواسطة الـ (٧٠٠٠) صاروخ نووي تكتيكي ، والتي يتمسك بها الاوروبيون باستماتة حتى يتجنبوا دفع الثمن الباهظ الذي يكلفه تشكيل الجيوش . ومن سخرية القدر أن تكون الحرب الاقتصادية الدائرة بين الحلفاء

حائلا دون التقشف لمواجهة العدو المشترك ، اذ من الصعب أن نحد من استهلاك الزبدة لصالح المدافع خوفا من القلاقل السياسية والاجتماعية التي تقودهـا موسكو منذ حوالي خمسين عاما . لا يوجد اذن أي بريق أمل ، أثناء السلم ، في أن نحصل على التوازن العددي بين قواتنا والقوات البرية لحلف وارسو . يبدو أن صدمة الحرب وحدها يمكن أن توقظ الغرب وتعبىء طاقاته الهائلة كما حدث خلال الحربين العالميتين الماضيتين ، شريطة ألا تكون المعركة الاولى الدفاعية هي الاخيرة .

لذلك يجب أن نفكر أولا في انقاذ اوروبا من الغزو ، وفي منع الخصم من الوصول الى باريس قبل أن نفكر في المسير نحو موسكو .

انطلاقا من هذه الغاية ، يقتصر المفهوم الذي نقدمه هنا على المرحلة الدفاعية لأي نزاع محتمل في اوروبا ، آملين أن يكون الدفاع الجديد المقترح رادعا للعدو عن اعلان الحرب العالمية الثالثة . يجب على هذا الدفاع ، ليس فقط أن يحمي الغرب من الغزو ، بل كذلك أن يحمي السوفييت أنفسهم من اغراء استغلال الفارق الكبير في القوة العسكرية والذي ما زال يتزايد لصالحهم منذ عشرين عاما . ولا شك في أن أمن الجميع ، أصدقاء وأعداء ، يتوقف في نهاية المطاف على ازالة هذا الفارق أو حرمان الخصم من مزاياه . وسنرى أن اعادة التوازن أسهل مما نتصور ، وأن هذه الاعداد الهائلة من دبابات حلف وارسو ، لن تعود ذات تأثير يذكر على مستقبلنا وقراراتنا . لقد ولّى زمانها الآن ، لأنه أصبح بالامكان تحويل كافة الدبابات والعربات المدرعة الى توابيت متحركة ، بعد أن كانت سيدة ساحة المعركة منذ عهد غودريان . يكفي أن نعرف ذلك ونريده ونستعد لـه .

* * *

٣ - المفهوم الجديد

في الدفاع النيوتروني ، لا بد من الرمي قبل اقتراب المهاجمين حتى لا يقع الجميع تحت تأثير المد النيوتروني . لذلك يجب أن تكون نقطة الصفر على مسافة ١٥٠٠ م بالنسبة للمدافع النيوترونية ، والا أصبحت أقرب الى المدافع الكلاسيكية المضادة للدبابات ، والتي لا تستطيع التعامل مع أكثر من هدف واحد بآن واحد . الا أن حقول الرؤية والرمي المباشر على مثل هذا العمق تظل نادرة في اوروبا الغربية ، حيث يمكن للعدو أن ينطلق من مسافات أقل من ١٥٠٠ م بكثير . في هذه الحالة ، يصبح القتال القريب حتميا ، ولا تستطيع المدفعية النووية التدخل دون المجازفة بتدمير العدو والصديق .

وهكذا يمكن القول اذن بأن تنظيم دفاع خطي متحرك من هذا النوع صعب جدا ، الا اذا تحولت الدبابات الى نوع من « البلوكوسات » المتحركة ذات التصفيح الهائل الضروري لتخفيف التأثيرات النيوترونية مع تقليل المسافة الى ثلاثة أرباعها على الاقل . ان فتح ثغرة في مثل هذا الدفاع يظل سهلا ، لأن قذيفتين نيوترونيتين تكفيان لتنظيف ثلاثة كيلو مترات من الجبهة المؤلفة من دبابات من الطرازات المعروفة حاليا . اذا كان المدافعون معرضين كالمهاجمين ، أي اذا تواجدوا على سطح الارض (كالدفاع المتحرك مثلا) ، عندئذ يمكن لسد زاحف نيوتروني أن يفتح الطريق دون احداث عوائق تذكر . ولكن لابد لهذا السد أن يكون متواصلا ومحكما ، دون أية ثغرة قد يستطيع العدو اكتشافها كما حدث سابقا في ثغرة « الأردين » ... لذلك يبقى الدفاع الوحيد المقبول في ظروف استخدام الوسائط النيوترونية هو الدفاع الثابت تحت الارض ،

مع اللجوء الى التحكيمات الاسمنتية أو الترابية أو اثنتين معا . هذا هو الثمن الذي لا بد من دفعه للوصول الى نجاعة شاملة للنظام الجديد ، ولو كان يذكرنا بخط ماجينو وبفكرة الدفاع الثابت ، وكلاهما يوحيان بذكريات مريرة .

الا أننا سنرى فيما بعد أن القبول بثبات الدفاع يهدف الى تأمين حركية النيران النووية التي تشكل من الآن فصاعدا الدعامة الاساسية للدفاع . فالعناصر الفعالة اليوم لم تعد مشاة الحرب العالمية الاولى أو دبابات الثانية ، بل هي نيوترونات الثالثة . ان العنصر الثابت هنا هو الخط أو الخطوط المتعاقبة للسد المضاد « للطوفان » ، بينما العنصران المتحركان هما النيران النووية المضادة للدبابات من جهة ، والقوات المدرعة التقليدية الساهرة على المؤخرة تحت حماية السد من جهة ثانية . انه في الظاهر أشبه بخط ماجينو ، ولكنه معزز في الامام بالقوة الساحقة والحركية الفورية للذرة ، وفي الخلف بحركية الدبابات ، وهذا ما كان ينقصه في أيار من عام ١٩٤٠ للقيام بمهمته بشكل فعال ، وهذا ما يجب أن يجعلنا نستبعد « عقدة ماجينو » التي تجعل الفربيين ينسون بسرعة نجاحات « خط مانرهايم » ضد الجيش الاحمر ، أو خطوط الدفاع السوفييتية لمعارك « كورسك » ولينغراد وستالنغراد . ولا بد من التذكير هنا بأنه اذا كان المفهوم المقترح يسعى نحو تأثير خطي للدفاع ، فان تنظيمه ليس خطيا طالما أن القسم الاساسي من وسائط القتال ــ البطاريات النووية والمدرعات ــ منتشرة على عمق كبير وليست مصطفة على نسق كما كان يحدث خلال الحرب العالمية الاولى أو بالنسبة لخط ماجينو التعيس ...

خلاصة القول أن أسلوب الدفاع المقترح هنا يجمع بين مزايا الاساليب المجربة خلال الحربين العالميتين : السد المحكم لخطوط الخنادق المتعاقبة (١٩١٤ ــ ١٩١٨) التي تسمح بالدفاع في الامام (على الحدود) ، والحركة السريعة لاحتياطات الدبابات (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) ، التي تسمح بتعزيز النقاط المهددة من الخط الدفاعي وتدمير القوى المتسربة الارضية أو الانزالات الجوية ؛ الا أن العبب الوحيد في هذا العصر النووي (ضمن اطار « الدفاع المتحرك » المقترح حتى الآن) هو ضرورة التخلي عن الارض أمام الخرق الاولي في النقطة

المختارة من قبل العدو ، ثم اعادة الوضع الى ما كان عليه بواسطة الهجمات المعاكسة التي تتعرض للنيوترونات كالهجوم نفسه . أضف الى ذلك صعوبة (أو استحالة) استخدام الذرة بحرية ضد وحدات مشتبكة ومتشابكة داخل دوامة الدفاع المتحرك وعلى أرض صديقة ذات كثافة سكانية عالية .

* * *

٤ – عودة الذّرّة إلى النّسق الأوّل

منذ الوثبة الكبرى الى الخلف ، التي قام بها الرئيس « كينيدي » عام ١٩٦١ ، أصبح السلاح النووي التكتيكي الوسيلة الاخيرة لتقويم الوضع العسكري اليائس في أوروبا . لم تعد الذرة هي النسق الاول اذن ، بل الاخير . وهكذا ظهرت استراتيجية « الرد المرن » ، التي تقبل بتأجيل استخدام الذرة حتى اللحظة الحاسمة التي يقررها رئيس الولايات المتحدة وحده . بهذا كانت كافة هذه المخاوف السياسية تمنع العسكريين من وضع ثقتهم بسلاح مشكوك فيه على هذا النحو . ومن هنا نشأت استحالة بناء عقيدة على رمال سلاح غير مضمون ، كما تولّد هلع التكتيكيين في حلف شمال الاطلسي ، بعد أن جردهم السياسيون من السلاح الذي جرى على ضوئه حساب تعداد القوات في الخمسينات . فهم لم يعودوا يملكون التعداد اللازم للدفاع التقليدي ، ولا العقيدة الضرورية للدفاع النووي . وهكذا أصبحت الهزيمة مؤكدة في كافة الاحوال ازاء خصم ترك له اختيار الاسلحة المناسبة . **لذلك نقترح نحن هنا اعادة الذرة الى النسق الاول .**

أما الاعتراض الثاني على تطوير عقيدة دفاعية جديدة ، تأخذ بعين الاعتبار القفزة الهائلة الى الامام لعامل « النار » ، فهو عدم وجود مقياس يمكن الاعتماد عليه من تجارب الماضي وخبراته . فالثورة ذات أبعاد واسعة ، والحجة النووية ما زالت جديدة في التكتيك ، مما يجعل هذه القفزة تبعث على الخوف والتردد . الا أنه لا بد من التذكير هنا بأن الخبرة الماضية في تطور فن الحرب تبرهن على أن النصر كان دائما حليف الذين تجرؤوا على التوفيق بين عقيدة الماضي والتكنولوجيا الجديدة . ولا شك في أن مخاطر التجديد تظل أقل بكثير من

مخاطر الجمود . في عام ١٩٣٩ ، لم يكن هناك ما يثبت بشكل قاطع أن الحركة قد طفت على نيران ١٩١٤ - ١٩١٨ ، مما سمح لعقيدة « غودريان » بأن تهزأ تماما من النظريات التقليدية المستندة الى خبرات الحرب العالمية الاولى . كذلك لم يكن هناك ما يثبت بشكل قاطع أن بامكان « الحرب الشعبية » لماوتسي تونغ أن تسخر لهذه الدرجة من حرب المدرعات الحركية التي قادها الفرنسيون والامريكيون في فييتنام على ضوء الدروس المستفادة من الحرب العالمية الثانية .

اذا كان لا بد من الاستناد الى روتين الماضي لتحريك فكرة جديدة ، فلنحاول المقارنة اذن بين تأثيرات الاسلحة النووية والاسلحة التي حلت محلها ، مع ايجاد مخرج مشترك . لنحاول ، في حدود المستطاع ، أن نترجم هذه التأثيرات الى تعابير « تقليدية » للوصول الى تقويم قدرتها الدفاعية ، أي الرادعة بتعبير آخر . ولا بد من التنويه هنا ، مع بقائنا في المجال المألوف والمعروف لخبرة الحرب العالمية الثانية ، بأن أية حكومة في العالم ، أو أي منظر استراتيجي ، لا يمكن أن يفكرا في مهاجمة خط دفاعي تقليدي تركزت على كل كيلو متر واحد منه قوة نارية تعادل عدة فرق مدرعة .

لنترجم الآن بتعابير معروفة « تقليدية » تأثير سلاحين نيوترونيين ، يرميهما مدفعان أو صاروخان أو طائرتان تكتيكيتان . يعرف التقنيون أن « أشعة الموت » لقذيفتين نيوترونيتين ، يتم اطلاقهما بفاصل يبلغ ١٥٠٠ م للاستفادة من تراكم الجرعات النيوترونية ، من شأنها تنظيف ستة كيلو مترات مربعة ، كما تضع خارج القتال فورا كافة الجنود الموجودين على سطح الارض في مجموع هذه المساحة ، سواء منهم الراجلون أم الموجودون في عربات أو دبابات تخترقها النيوترونات كما تخترق الاشعة الزجاج . لكي نتمكن دفعة واحدة من ايقاف تشكيلات مدرعة على نفس هذه المساحة ، يلزمنا رشقة فورية من القذائف التقليدية بمعدل قذيفة لكل ١٠ - ٢٠ مترا ، أي : ١٥ - ٦٠٫٠٠٠ مدفع كلاسيكي ترمي بآن واحد على جبهة ٣ كم . وهذه تساوي

بالضبط القوة النارية لمجموع مدافع ودبابات ۳۰ – ١٥٠ فرقة مدرعة ترمي بآن واحـد .

تكفي هذه المقارنة المختصرة للبرهان على أنه من السهل التوفيق بين دروس الماضي وحقائق الغد . بهذه الاشعة المميتة ، أصبحت دروب النصر والمجد القديمة والتقليدية أقرب السبل الى المقابر . فليقتنع الجميع بهـذه الحقيقة حتى يصبح ردع العدوان ، من أية جهة جاء ، مؤمنا بصورة مؤكدة ...

* * *

٥- إنقاذ المانيا الغربيّة

منذ نظرية « الرد المرن » ، أصبح من المحتم أن تظل الافكار المتعلقة بالسلاح النووي التكتيكي محصورة ضمن الاطار التقليدي لقوات تقليدية وعقيدة تقليدية ، لانها تدعو أولا الى قتال كلاسيكي قبل اللجوء الى الذرة . ومن الطبيعي أن يجري ذلك على عمق كبير من ساحة المعركة فوق الارض الالمانية الغربية ، اذ لا بد من التخلي عن الارض أمام هجوم القوات المدرعة السوفييتية المتفوقة عدديا . ومما لا شك فيه أن هذا الشرط السياسي ، الذي أضاف السلاح النووي الى الصور الكلاسيكية المألوفة للقتال ، قد أدى الى اهمال الآفاق المفتوحة لاستثمار التكنولوجيا الجديدة ، كما حال دون رؤية كافة أبعاد المسألة ومتغيراتها . على ضوء هذه الرؤية ، اقتصر استثمار التكنولوجيا النووية على القاء المتفجرات النووية فوق القوات الصديقة ، بينما توجد هناك تطبيقات أخرى ممكنة للذرة لتأمين الدفاع . لذلك سيشمل ما سنحاول ادخاله في مسألة الدفاع عن اوروبا التطبيق الكامل الشامل لكافة الموارد التي تتيحها لنا الطاقة النووية .

من المفيد في هذا الصدد أن نتذكر مسألة الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات في مطلع الخمسينات . لقد اعترض رجال سلاح الجو الامريكي ، وبخاصة قيادة الطيران الاستراتيجي ، على نشر هذه الصواريخ آنذاك ، لانهم لم يستطيعوا تصور مهمات قتالية دون تدخل الطيارين . كان من الصعب عليهم قبول فكرة حرب تستند على تكنولوجيا الضغط على الازرار عوضا عن المحاربين .

طالما أن الاهتمام السياسي بالمحافظة على الصور التقليدية هو الذي يوجه حلف شمال الاطلسي ويقود خطاه ، سيظل المخططون العسكريون يقاومون

كل نظام جديد . وقد أتينا هنا على ذكر الصواريخ البالستيكية العــابرة للقارات ، لأن المفهوم الدفاعي الذي نقترحه يستلزم تغيير الفلسفة المتبعــة حاليا ، بمعنى أنه يستند على التكنولوجيا في الدفاع أكثر من استناده على التضحية بالمقاتلين .

ليس هذا المفهوم جديدا في الواقع ، بل هو مجرد عودة الى المبدأ الدفاعي الذي تبنته فرنسا في الثلاثينات : أي مبدأ خط ماجينو ، الذي أخطأ هدفه في الحرب الماضية وأصبح مثارا للسخرية . الا أننا ، بعودتنا الى الخلف ، نقوم بوثبة الى الامام ، نحو المستقبل التكنولوجي ، لبناء خط دفاعي على ضوء كل ما يمكن العلم النووي أن يقدمه اليوم . وهكذا سنستبدل رصاصات وقذائف خط ماجينو بأسلحة جديدة تعتمد على النيوترونات وأشعة « غاما » . أما المعركة الحاسمة هنا فستجري ، ليس على ساحة المعركة العميقة السابقة ، بل على حدود عالمين في اوروبا الوسطى .

٦- خط ماجينو

بعد الحرب العالميــة الاولى ، حيث تعرض الجنـود الفرنسيون لمجزرة رهيبة ، وحيث اضطر المدنيون لمغادرة قراهم التي أبادتها ضراوة القتال ، قررت الحكومة الفرنسية عدم ترك أية فرصة لخوض الحرب على أراضيها مهما كلف الامر .

منذ عام ١٩١٩ ، بدأت هيئة الاركان الفرنسية دراسة تحصين الحدود . استمرت هذه الدراسات حتى عام ١٩٢٥ ، حيث اقترح مجلس الدفاع الاعلى نظام تحصين متقطع . في عام ١٩٢٧ ، أسست منظمة خاصة للمناطق المحصنة ، وضع لها برنامج عمل حدد فيه موقع التحصين وأفضلياته .

من الجانب العسكري ، حظي هذا المفهوم الدفاعي بدعم وتأييد أحد ابطال الحرب الكبرى البارزين ، وهو المارشال « فيليب بيتان » . أما من الجانب السياسي ، فقد أصبح بطل المشروع السيد « أندريه ماجينو » الذي عين وزيرا للحرب في عام ١٩٢٩ . وفي عام ١٩٣٠ ، حيث بدأ القلق يساور الفرنسيين تجاه النوايا العدوانية الالمانية ، استطاع « ماجينو » أن يحصل على موافقـة البرلمان فيما يتعلق بتخصيص الاموال اللازمة لبدء العمل في المشروع الذي حمل اسمه : وهو خط ماجينو . وقد كان من أبرز مزاياه اختصار تعـداد الجيش العامل حسب اعتقادهم السائد .

تم تصميم هذا الخط بشكل يقاوم معه أحدث أسلحة العصر ، كما كانت النقاط الحساسة فيه مقامة تحت الارض بصورة لا تسمح بتدميرها . كذلك كانت كافة التحصينات مرتبطة بسلسلة من الانفاق والمصاعد الكهربائية ، التي تسمح للجنود والذخيرة والتموين بالانتقال بمأمن من تأثير العدو . وقد قد ضم هذا المجمع الهائل العديد من الحصون والمستودعات والمستشفيات والثكنات

وغيرها ... أمام هذه التحصينات ، كانت الترسانة الكلاسيكية المعروفة من الحواجز المضادة للدبابات والاشخاص .

تلقى هذا الخط نصيبه من المديح والذم على السواء . وقد كان أشد المنتقدين هو « شارل ديغول » الذي كان يفضل الحركية على الدفاع الثابت . الا أنه لم يكن يرفض فكرة التحصينات الثابتة التي تستند عنيها المناورات المدرعة ، بل يعترض ، على ضوء الميزانية المتوفرة ، على التضحية بالحركية لصالح الدفاع الثابت . أما المنتقد الثاني فكان « أدولف هتلر » شخصيا ، الذي أعلن قائلا : « سوف أخرج فرنسا من خط ماجينو دون خسارة جندي واحد » . وهذا ما قام به فعلا في عام ١٩٤٠ ، عندما التف على هذا الخط عن طريق « الاردين » التي كانت هيئة الاركان الفرنسبة تعتبرها غير صالحة للعبور.

في عام ١٩٣٦ ، أقام الالمان خطهم المحصن في مواجهة خط ماجينو . الا أن مبدأ « خط سيففريد » كان مختلفا ومستندا على الدفاع في العمق . لقد صمم هذا الخط ليعمل بمثابة جهاز انذار وليس كسد خطي لا يمكن عبوره . فالغاية الاساسية منه هي تأخير واعاقة تقدم العدو أكثر من ايقافه أو تحطيمه ، بانتظار الهجمات المعاكسة للاحتياطات المتحركة .

عند انتهاء هذا الجدار الدفاعي ، بلغ طوله ٦٥٠ كم ، من الحدود السويسرية حتى النقطة التي يدخل عندها نهر الراين الاراضي الهولندية . وقد ضم ٣٠٠٠ بلوكوس ونقطة مراقبة بالاضافة الى الحواجز المضادة للدبابات والاشخاص . لقد كانت هناك ، حسب طبيعة الارض ، ثلاثة خطوط متعاقبة من التحصينات ، يبلغ عمق كل منها خمسة كيلو مترات .

عندما وضع « خط سيففريد » موضع الاختبار ، كانت ألمانيا قد خسرت الحرب ، كما تم سحب الجنود والعتاد منه لتعزيز القطاعات الاخرى . وهكذا لم يكن أمام الالمان سوى بضعة أسابيع لاعادة تجهيز هذا الجدار ، يضاف الى ذلك أن معظم المدافعين عنه كانوا من صغار السن أو من المسنين غير المدربين . رغم كل هذا ، فقد صمد الجدار جيدا حيثما هوجم ، (بالقرب من « ايكس لاشابيل ») وأعاق كثيرا تقدم القوات الحليفة . وهذا ما ورد في الوثائق

التاريخية الرسمية الامريكية : « مما لا شك فيه أن هذه التحصينات قد أكسبت الدفاع قوة كبيرة على طول الحدود الالمانية ، الا أن سوء حالتها ونوعية المدافعين عنها قد حطّا كثيرا من قدرتها الهائلة . صحيح أن هذا الخط لم يكن ليستعصي على الامريكيين ، الا أن هؤلاء لاحظوا أن الفولاذ والاسمنت يشكلان الشوكة الاساسية للدفاع رغم الثغرات المتعلقة بقدم التحصينات وعدم كفاءة المدافعين من المسنين أو مشوهي الحرب » .

أما الجنرال الالماني (أوتو هيتز فيلد) فيقول : « في المعركة الاخيرة ، صمد الجدار الغربي جيدا ولمدة طويلة . وأعتقد بأنه كان من المستحيل عبوره لو دافعت عنه قوات سنوات ١٩٣٩ — ١٩٤٢ بعتادها وذخيرتها » .

الا أن فشل هذين الخطين الدفاعيين في تحقيق أهدافهما أو تلبية الآمال الكبيرة التي علقت عليهما ، يجب ألا ينسينا كيف نجح **« خط مانرهايم »** الفنلندي ، سنة ١٩٤٠ ، في الحاق هزيمة نكراء في صفوف الجيش الاحمر الذي خسر عنده (٢٥٠,٠٠٠) رجل ، أو الدفاعات الثابتة التي نظمها الروس حول (كورسك) بعد ستالنغراد ، والتي تحطمت عندها كافة الهجمات الالمانية التي تقلصت سرعة تقدمها الى حوالي ١٠ كم . أما دفاعات لينينغراد وستالنغراد ، فما زالت خالدة في الاذهان . لذلك لا تجوز ادانة هذا النوع من الدفاع بصورة مطلقة ، خاصة اذا تطورت الاسلحة بشكل تتغير معه كافة المعايير والمقاييس .

٧- السّد الحديث

بعد هذه اللمحة الخاطفة التاريخية عن الدفاعات الخطية المحصنة خلال الحرب العالمية الثانية ، ننتقل الى السد الدفاعي الحديث المقترح لحلف شمال الاطلسي ، الذي يقدم دفاعا نوويا خطيا بالدرجة الاولى في مواجهة هجوم نووي أشبه بالهجوم الالماني في الحرب العالمية الثانية .

يتألف هذا السد من منظومة محصنة تحت الارض ، تكون بمأمن من الرمايات التقليدية والنووية . وسيتم احتلاله من قبل قوات كلاسيكية مزودة بتسليح تقليدي حديث ، الا انه سيدعم ويكمل بواسطة أسلحة نووية متمركزة بعيدا في المؤخرة . في حالة الخرق ، أو الالتفاف ، يمكن أن تتدخل قوات احتياطية مدرعة ، متمركزة في الخلف ، ومزودة بأسلحة تقليدية ونووية .

يهدف هذا النظام الى تدمير اي خرق مفاجىء لقوات الخصم أقرب ما يمكن من « الستار الحديدي » .

تستند المنظومة الثابتة للسد الى :

آ ـ سلسلة من المنع تحت الارض ، مضادة للرمايات النووية والتقليدية ، مزودة بأسلحة مضادة للدبابات والاشخاص .

ب ـ حواجز مضادة للدبابات والاشخاص .

ج ـ جهاز من وسائط الكشف ، أمام السد وفي منتصفه ، يسمح بكشف وجود العدو ليلا ونهارا ، ومهما كانت العوامل الجوية ، كما يسمح باجراء الرمايات النووية والتقليدية ، سواء الرمايات المباشرة من المنع أو أو الرمايات غير المباشرة للمدفعية خلف السد أو رمايات الطيران التكتيكي .

د ـ وسائط م/ط للتصدي للهجمات الجوية على ارتفاعات منخفضة وكذلك لهجمات الحوامات .

هـ ـ حزام اشعاعي مناسب في منطقة الحواجز .

يمكن اثارة هذا النشاط الاشعاعي بصورة آلية عن طريق الرمايات النووية الصديقة أو العدوة . كما يمكن اثارته أيضا حسب الطلب ، بواسطة جهاز خاص سنأتي على ذكره فيما يلي . يستطيع هذا النشاط الاشعاعي طوال الحواجز أن ينتج أشعة غاما تصيب الاعداء الذين يحاولون العبور أو الغزو .

تتضمن قوات المؤخرة المتحركة :

آ ـ منظومة صواريخ ذات مدى مناسب للدفاع عن السد برمايات نووية وتدمير القوات التي نجحت في عبوره . يجب أن يكون مدى هذه الصواريخ بعيدا بما فيه الكفاية لتغطية جزء كبير من السد ، وأن تكون مهلة تدخلها قصيرة بشكل تلبي معه طلب المدافعين في الامام .

ب ـ قوات مدرعة سريعة الحركة للقيام بهجوم معاكس على العناصر التي نجحت في عبور السد ، وتدمير القوات المسقطة جوا بواسطة المظلات او الحوامات. وهي لا تختلف كثيرا عن القوات الكلاسيكية الحالية من نفس النوع ، ويمكن استخدامها عند الحاجة كنواة للهجوم المضاد العام بعد المعركة النووية وتعبئة القوات الغربية .

جـ ـ قوات دفاع جوي متحركة للتصدي للتهديدات التي يمكن أن تشكلها قوات المظليين او المنزلة بواسطة الحوامات خلف السد .

أما اذا كانت هناك ضرورة لتنفيذ هجمات في العمق ضد أهداف في اوروبا الشرقية ، سواء لردع العدو عن اللجوء الى التصعيد الجغرافي النووي ، أو لتدمير أهداف عسكرية مكتشفة في المؤخرة وذات أهمية كبرى ، فيجب أن تقوم بها الفواصات النووية أو الصواريخ المتحركة ذات المدى البعيد . وأخيرا ، من البدهي أن تظل القوات الاستراتيجية محتفظة بدورها لمنع لعدو من الابتزاز والتهديد بالحرب النووية الشاملة او اللجوء الى تدمير المدن .

لندخل الآن في تفاصيل بناء هذا السد الدفاعي وعمله :

للتصدي لأي هجوم مباغت ، لا بد أن يكون هذا النظام جاهزا للعمل في أية لحظة من أوقات السلم ، مثل جاهزية الانظمة المركزية الاستراتيجية وقواعد صواريخ الـ « مينوتمان » أو الغواصات النووية . فالردع التكتيكي ، كالردع الاستراتيجي ، يستلزم انذارا دائما للمدافعين ، ويتطلب البقاء بعد الضربة الاولى .

على صعيد الاشخاص الملحقين بالدفاع في الامام ، يجب تصور نظام للتناوب الدوري وتبديل مخافر القتال . ويمكن هنا الاقتباس من النظام المطبق على القوات الاستراتيجية المستنفرة بصورة دائمة . الا أن هناك فارقا أساسيا : فالهجوم المباغت للقوات البرية يأتي دائما بسرعة أقل من الصاروخ الاستراتيجي ، لذلك تبقى مهل الانذار كافية لاتخاذ التدابير الضرورية والاستعداد لمواجهة الخطر الداهم . ولا يوجد ما يمنع من استخدام الاساليب التقليدية (كالمدرعات الخفيفة مثلا) لاعطاء الانذار في الوقت المناسب ، مع التضحية ببضعة كيلو مترات من الارض أمام السد . وهكذا لا تعتبر هذه المسألة صعبة الحل .

أما البقاء بعد تلقي الضربة الاولى ، والذي وجد طريقه الى الحل عن طريق الاسمنت المسلح بالنسبة للصواريخ الاستراتيجية في قواعدها وسدنتها في ملاجئهم ، وعن طريق صعوبة الكشف بالنسبة للغواصات ، فيفرض هنا أن يبقى المدافعون عن السد تحت الحماية الدائمة من الضربات النووية التكتيكية الاولى التي تصل غالبا دون سابق انذار . لذلك لا يوجد أي حل تقني لهذه المشكلة سوى التعود على الحياة تحت الارض ، مثلما كان يفعل المدافعون عن خط ماجينو خلال فترات التوتر ، أو كما كان يفعل ثوار الفيتكونغ الذين تعودوا العيش مثل الخلد للتخلص من جحيم القنابل التي كانت تلقيها الطائرات الامريكية القاذفة (ب ــ ٥٢) خلال السنوات الاخيرة من الحرب . لافشال الاستراتيجية النووية التي أعلنها « سوكولوفسكي » ، لا بد لكافة أجهزة المنظومة الدفاعية لحلف شمال الاطلسي أن تكون قادرة على تحمل الضربة الاولى للصواريخ (SS - 20) وغيرها من المدافع النووية السوفييتية .

أما الآن ، فلا يبشر الواقع بأي خير ، اذ أن رشقة واحدة على الاهداف المكتشفة في أوقات السلم بواسطة العملاء السوفييت الكثيرين في الغرب ، أو بواسطة أقمار التجسس ، تكفي حاليا لتدمير الوسائط الاساسية لحلف شمال الاطلسي ، وخاصة مستودعات الإسلحة النووية . من هنا تبرز ثقة الاستراتيجيين السوفييت بقدرتهم على الابطال الفوري للبطاريات النووية للدفاع الارضي الغربي ، حيث يفتح أمامهم بعد ذلك باب الحرب التقليدية والاستثمار الواسع للدبابات التي يمكنها انهاء العمل بسهولة تامة . ولنذكر هنا بعبارة (سوكولوفسكي) الشهيرة : « من المستحيل خوض عمليات عسكرية ناجحة

قبل أن نقوم مسبقا بتدمير وسائط الخصم النووية » . بهذا القول ، يدلنا « سوكولوفسكي » نفسه على الطريقة المثلى لاحباط خطته : اذا نجحنا في حماية قواتنا التكتيكية من الرشقة الاولى ، كما فعلنا بالنسبة لقواتنا الاستراتيجية ، عندئذ لن تستطيع هيئة الاركان السوفييتية القيام بأية عمليات عسكرية ناجحة . وهكذا يظهر بوضوح الاتجاه الذي يجب أن تنصب فيه جهود الردع ... لأن الحرب تصبح بلا معنى اذا لم يضمن نجاح القوات البرية . ان كافة المدفعية النووية للخصم ، وصواريخه العابرة للقارات وغواصاته النووية ليس لها سوى هدف واحد : هو دعم عمل الجيش الاحمر وفتح طريق النصر النهائي أمامه . لذلك يكفي أن نسد هذا الطريق لكي ينهار البناء كله . فالردع الحقيقي اذن هو الدفاع التكتيكي ، الذي يمر أولا بالبقاء بعد الرشقة الاولى .

٨ - دروس « ديان بيان فو »

مما لا شك فيه أن أقسى درس فرضه الجنرال « جياب » على جيوش الغرب الجرارة هو قلب سلّم القيم العسكرية وتسلسلها . فقد كان النصر أخيرا حليف القوات البرية لـ « هوشيمين » بدون بحرية أو طيران .

وهكذا نجد أن كل القدرة النارية « للاستعماريين والامبرياليين » بطوفان قنابلهم مع النابالم ، بغاراتهم الارهابية على « هانوي » ، بوسائطهم الالكترونية وحواماتهم وطائراتهم وأساطيلهم ، لم تنجح في قهر صلابة وشجاعة مشاة « جياب » . خلافا للغربيين ، الذين يهدفون الى تأمين السلام عن طريق الارهاب ، الامر الذي نجم عنه الاعتماد أساسا على القوى الاستراتيجية في منطقهم العسكري ، لم يعمد السوفييت الى تغيير تسلسل القيم ، بل ما زالوا يعطون القوات البرية الدور الاول . لقد بقيت المدفعية خادمة للمشاة التي تستطيع وحدها تجسيد النصر اليوم وغدا كالامس ، حيث أصبحت مهمتها الاساسية فتح الطريق أمام المشاة بتدمير الحاجز الاهم الذي يعيق تقدمها : وهو البطاريات النووية للدفاع . ان كل شيء يتوقف الآن على نجاح هذه المهمة .

بالنسبة للمسألة التي تشغلنا ، يبرهن الدرس الآخر المستفاد من حرب الهند الصينية أن هذه الوظيفة للمدفعية السوفييتية يمكن أن تكون وهما كاملا و « مهمة مستحيلة » . فقد بنيت كارثة « ديان بيان فو » على وهم امكانيات معاكس البطاريات . لم يكن لهذا الحصن الضائع وسط الادغال أي اتصال اداري مع العالم الخارجي سوى مطاره الذي كانت تصل عن طريقه التعزيزات والتموين بالمؤن والمحروقات والذخائر . لم يغرب عن بال هيئة الاركان الفرنسية أن تدمير هذا الحبل السري سيقرر بسرعة مصير المدافعين المحاصرين ، كما كان المكتب الثاني (المخابرات) في « هانوي » يعرف

أن الصينيين يزودون جيوش « جياب » بمدافع من عيار ١٠٥ ملم . الا أن نقل هذه المدافع مع ذخيرتها الى « ديان بيان فو » عبر الادغال كان يبدو شبه مستحيل ، خاصة مع السيطرة الجوية الفرنسية المطلقة ووجود المدافع البعيدة المدى من عيار ١٥ ملم ، التي تستطيع تدمير هذه المدفعية اذا نجح الفييتناميون في الوصول بها الى مدى المطار . وهكذا كان الجهاز الدفاعي كله مبنيا على اليقين بنجاح معاكس البطاريات الارضي والجوي ...

يعرف الجميع نتيجة هذه المعركة ، حيث فشلت جهود الطيارين والمدفعيين الفرنسيين في اسكات المدافع ١٠٥ ملم التي قررت مصير ديان بيان فو . أما الخطة التي اتبعها الفييتناميون هنا فهي بسيطة جدا ، حيث حفرت للمدافع ملاجىء خاصة على سفح الجبل ، تخرج منها للرمي ثم تعود اليها لتحتمي من وابل قنابل الطيران وقذائف المدفعية الفرنسية من عيار ١٥٥ ملم . وهكذا كان معاكس البطاريات فشلا ذريعا، مما دعى العقيد قائد مدفعية « ديان بيان فو » الى الانتحار لانه أدرك مسؤوليته عن تلك الكارثة .

استنادا الى هذا المثال الملموس ، يمكن التساؤل كيف يمكن لمعاكس البطاريات السوفييتي أن يكتشف ويدمر بطاريات الدفاع اذا انتشرت على مسافة تتراوح بين ٥٠ ــ ٥٠٠ كم وأكثر من الخط المطلوب الدفاع عنه ، وهذه مسافات يسمح بها مدى الاسلحة الحديثة ؟ مما لا شك فيه أن باستطاعة هذه البطاريات أن تصمد أمام الضربة الاولى اذا تم نشرها وتمويهها وحمايتها على العمق الكامل لاوروبا الغربية . واذا كانت الرشقة الاولى نووية ، فان استهلاك هذه الاداة الباهظة التكاليف على أهداف غير مؤكدة أو خاطئة ، لن يساهم في كسب المعركـة .

لقد أصبح من المؤكد اليوم ، أن اطلاق ١٠٠٠ صاروخ نووي لتدمير ١٠٠٠ صاروخ مقابل يشكل هدرا لهذه الطاقة الثمينة . فاذا حدث استثنائيا ان اصاب كل صاروخ هدفه ، فان الخسارة تكون متساوية لدى الطرفين ؛ أما اذا كان معدل الاصابة في حدود ثلاثة صواريخ لواحد ، وهو المعدل الممتاز حاليا ، فان توازن القوى سيختل لصالح الضحية ... لذلك يمكن القول

ان معاكس البطاريات النووي لا يمكن أن يكون رابحا ضد أهداف غير مضمونة ، بل وضد الاهداف المضمونة أيضا اذا كانت منتشرة .

الا أن اعطاء السوفييت الافضلية الاولى لتدمير بطاريات الدفاع مسبقا ، يرجع الى تكديس الاسلحة التكتيكية لحلف شمال الاطلسي داخل مئة من المستودعات المكتشفة والمعلّمة في المانيا . ان مثل هذا الترتيب يشجع على الهجوم المفاجىء للصواريخ (SS - 20) ويبدد آمال الامريكيين في رؤية السوفييت يعطون اشارة الانذار عن طريق البدء بالعمليات التقليدية .

لا شك في أن هذا الترتيب نتيجة مباشرة للسياسة النووية الامريكية : حماية الاسرار الذرية من تطفل الحلفاء ، الاهتمام بالحفاظ على الاشراف السياسي على هذه الاسلحة لكي لا يفسح أي مجال لأي عسكري باطلاق العملاق النووي من قمقمه ، الخوف الحديث من الارهاب الدولي (أي الخوف من قيام منظمات ارهابية كالالوية الحمراء مثلا بالاستيلاء على أحد الاسلحة المنتشرة واستخدامه للابتزاز السياسي) . لذلك كله يفضل الامريكيون ابقاء هذه الوسائط مجمعة بشكل تسهل معه حراستها بصورة مشددة ، ولذلك ايضا نجد السوفييت واثقين من امكانية نجاح معاكس البطاريات الأولي .

منذ عشرين عاما ، عندما كانت الفرضية الاكثر احتمالا هي الهجوم التقليدي للجيش الاحمر (نظرا لافتقاره آنذاك للعدد الكافي من الاسلحة النووية التكتيكية) ، كان من الممكن ايجاد مبرر لهذه البدعة العملياتية الخاطئة ، حيث كان هناك وقت كاف لانتشار هذه الاسلحة . الا أن تزايد كمية ودقة المدافع النووية السوفييتية بمرور السنين ، قد جعل من هذا النظام جنونا حقيقيا يشجع على ما يهدف « الرد المرن » الى تجنبه : وهو الهجوم النووي الاولي والهجوم المباغت المضمون النجاح .

وهكذا نجد أن كافة الاحتياطات « الادارية » المتخذة من قبل السياسيين الامريكيين في اطار استراتيجية الرد المرن لتجنب اطلاق الحرب النووية قبل أوانها قد انتهت الى عكس الهدف المرجو تماما وفي أسوأ الاوقات . في الظروف الحالية ، لا يترك اختيار الاسلحة للعدو فحسب ، ولكن الترتيب النووي من جهتنا يضمن الا يستطيع السوفييت مقاومة اغراء البدء بفتح النار .

ان أول خطوة لافشال الاستراتيجية السوفييتية تكمن اذن في نشر وتمويه وحماية البطاريات النووية وذخيرتها على كامل عمق الارض المنوي الدفاع عنهـا ، لكي يصبح معاكس التمهيد غير فعـال في اوروبا كما كان سابقا في « ديان بيان فو » . بهذا تنهار قاعدة الاجتياح النووي الذي تخاف منه اليوم اوروبا الغربيـة .

بالتوازي مع الحماية الضرورية للبطاريات النووية وذخيرتها ، يجب على مفهوم التحصينات التي تشكل السد المتقدم أن يأخذ بعين الاعتبار الطاقـة التدميرية التي يجب على الخصم أن يكرسها لابطال هذا السد . ومن البدهي هنا أن تحسب مقاومة التحصينات للنيران النووية بشكل يمكن معه جعل العدو يقلع عن استنفاذ مخزوناته النووية التكتيكية في مثل هذه العملية . لذلك يجب أن يتم الترتيب والتنظيم بشكل لا يستطيع معه سلاح نووي واحد تدمير أكثر من ملجأ في آن واحد .

أما فيما يتعلق بموقع هذه المنشآت ، فمن الطبيعي أن يستفيد أقصى ما يمكن من الحواجز الطبيعية التي تعيق تقدم القوات البرية : مجاري مياه ، غابات ، أقنية ، مناطق جبلية ، الخ ... في بعض الحالات ، لا يقتصر عمل الدفاعات الطبيعية على تعزيز فعالية المنشآت ، بل تخلق حواجز هائلة أمام تقدم القوات البرية في حال استخدام العدو المكثف للاسلحة القوية لتدمير التحصينات . والسوفييت يتباهون بحق بقدرة قواتهم البرية على تخطي الحواجز الطبيعية ، وخاصة فيما يتعلق بالجسور المتحركة التي تعتبر أفضل وسائط عبور في العالم . الا أنهم يظلون مشغولين ، في كتاباتهم العسكرية ، بالحواجز الاصطناعية التي تعيق الاجتياح السريع كتلك التي تنجم عن الانفجارات النووية الصديقة أو العدوة . وهاهي بعض الامثلة :

« في المناطق السكنية ، يكون استخدام الاسلحة النووية محدودا باتساع الدمار المادي والالغام التي تجعل من المستحيل احتلالها أو اختراقها من قبل القوات الصديقة أو العدوة » (الجنرال سوفكولوفيتش) .

« يمكن للهجمات المعادية بالاسلحة النووية وغيرها من أسلحة التدمير الشامل أن تؤدي الى خلق مناطق ملوثة واسعة وبؤر من الحرائق التي تتطلب

تدابير خاصة لحماية القطعات وتأمين تقدمها عبر مناطق الحواجز والتلوث الاشعاعي » (العقيد سيدورنكو) .

يدل هذا الاستشهاد على قلق المخططين السوفييت من عوائق التقدم التي يمكن أن تنجم من الرمايات النووية العدوة والصديقة . وقلقهم هذا في محله ، لأن الاستراتيجية السوفييتية تعتمد على التقدم السريع والمتواصل في أراضي الخصم . على هذا الاساس ، من المغري حقا أن تأتي رمايات السوفييت أنفسهم لتزيد من فعالية السد الذي أقامه الحلفاء الغربيون

أليس من الافضل اذن أن تقلب طرق الجيش الاحمر ضده بدلا من التصدي له بنفس أساليبه ؟ أليس من الافضل مواجهته بنظام دفاعي يستفيد أقصى ما يمكن من نقاط الضعف التي يعترف بها السوفييت أنفسهم في عقيدتهم الهجومية ؟

من المعروف أن اجتياز المناطق المشجرة من قبل القوات المدرعه صعب وفق طبيعة الاشجار وكثافتها ، وبخاصة اذا قطعت بواسطة الانفجارات النووية . أما اذا استخدم الخصم أسلحة ذات قوة كبيرة جدا في محاولة منه لتدمير أكثر من منشأة دفاعية في آن واحد ، عندئذ تكون النتيجة النهائية احداث سد يعترض تقدمه بصورة أكثر فعالية من ذلك الذي يسعى لازالته والتخلص منه . تضاف الى المحطومات الهائلة هذه الحرائق الكبيرة التي لا بد أن تنتشر في الغابات نتيجة الانفجار النووي ، وخاصة في فصل الصيف .

كذلك الامر عندما تقام التحصينات في المناطق الصخرية والجبال ، حيث تؤدي طبيعة الارض الى اعاقة تقدم الدبابات ، ثم تأتي الانفجارات النووية لتزيد رقعة الحواجز الصخرية والانهيارات ، فتكون النتيجة عكس ما هو متوقع ومرجو .

لقد رأينا كيف يخشى السوفييت التلوث الاشعاعي للانفجارات الارضية التي تحدث تساقطات واسعة . لذلك يبدو أنهم يفضلون الانفجارات الجوية ، خاصة وأن اتجاه الرياح في اوروبا الغربية تظل موجهة باتجاه الشرق بصورة عامة .

صحيح أن الانفجار الجوي يحد من التساقطات ، الا أن تلوث الارض تحت الانفجار يظل حتميا بسبب امتصاص النيوترونات من قبل بعض عناصر الارض . وفي معظم الحالات ، يكون « الصوديوم » هو عامل الاشعاع في الارض ، وهو ، على قلته ، ذو قدرة هائلة على امتصاص النيوترونات . يمكن لهذه الخاصية أن تحدث مناطق اشعاع مكثف بالقرب من نقاط الصفر اذا انفجر سلاح قوي بالقرب من سطح الارض . ولما كانت مركبات الصوديوم زهيدة الثمن ، فان من السهل تعزيز الاشعاعات الناجمة عن النيوترونات بشكل طبيعي ، وذلك عن طريق اضافة مركبات مناسبة للصوديوم الى السد المزمع انشاؤه . والمركب المفضل هنا هو كربونات الصوديوم .

لقد اثبتت حساباتنا أن اشعاعات « غاما » تبقى عدة أيام ذات شدة تكفي لمنع تقرب طواقم الهندسة المكلفين بوضع حشوات التدمير في الحواجز الاصطناعية بغية فتح الطريق للآليات . ولا شك في أن هذه العملية تؤدي حتما الى موت كافة العناصر التي تحاول ازالة أضراس التنين والاسلاك الشائكة والالغام .

للصوديوم المشع نصف حياة مدتها ١٥ ساعة ، وهذا يعني أن شدة أشعة غاما الناتجة تقسم على اثنين كل ١٥ ساعة ، مما يؤدي بعد بضعة أسابيع الى هبوط هذه الشدة حتى مستويات غير ضارة .

من شأن هذا الحزام الاشعاعي ، الذي يحمي الخط الدفاعي ، أن يقوم وحده بردع العدو عن استخدام الاسلحة النووية لفتح طريق للتقدم . والانظمة السوفييتية واضحة في هذا المجال : عندما يبلغ الاشعاع ، الذي يقاس بواسطة الاجهزة الموزعة على كافة الوحدات ، عتبة معينة ، على الوحدات أن تتوقف ، بل تتراجع لتبحث عن طريق خالية من أشعة غاما .

خلافا للماضي القريب ، حيث كان الهجوم ينتصر دائما على الدفاع الخطي ، لأن المكننة وامكانيات الحركة البرية الحديثة تسمح للمهاجم بحشد قوة ساحقة لفتح الطريق في المكان والزمان المختارين ، لم يعد المدافع يخشى التفوق العددي ، بل أصبح يتمناه ويسعى اليه ، وهذه ثورة لا مثيل لها في التاريخ العسكري !... فمهما كان عدد الدبابات المهاجمة في أقسومة الارض

المكلف بالدفاع عنها ، يكفيه اطلاق قنبلة أو قنبلتين نيوترونيتين لكي تتسمر القوات المهاجمة في أرضها دون حراك . وهكذا لم يعد المدافع مضطرا لتدمير المدرعات الواحدة تلو الاخرى ، بل يستطيع تدميرها دفعة واحدة (أو بالاحرى القضاء على طواقمها) دون الخوف من طغيان موجات الانقضاض على وتيرة الـرمي .

لقد أصبحت القذائف الجديدة التي يتمتع بها المدافع لا تقارن مطلقـا مع الماضي ، انها نيوترونات تصل بآلاف المليارات الى كل سنتمتر مربع من اقسومة الارض المدافع عنها خلال جزء من مليون من الثانية ، لكي تخترق كافة أنواع الدروع المعروفة في الوقت الحاضر .

٩ــ حقل الألغام المشعة

كانت أول فكرة طرأت على أذهان مخططي حلف شمال الاطلسي ، قبل ظهور استراتيجية الرد المرن ، هي وضع الغام نووية تشكل سدا طوال الستار الحديدي . اتصفت هذه الفكرة بميزتين أساسيتين : اظهار تصميم المدافعين على استخدام الذرة لانقاذ اوروبا الغربية من جهة ، ثم دفع المعتدي لأن يقوم بنفسه باطلاق النار على نفسه . الا أن هذه الفكرة لم تعد مقبولة سياسيا عندما طلع حلف شمال الاطلسي باستراتيجية دفاعية تنادي بالرد بنفس الوسائط على الهجوم التقليدي للعدو وعدم اللجوء الى الذرة الا عند الضرورة القصوى . اضف الى ذلك أن اقامة هذا السد النووي لا بد أن تتم على الحدود ؛ وهذا يعني قبول التضحية بجزء من المانيا الغربية يقع بين حقل الالغام والستار الحديدي . كما أن « الرد المرن » يتطلب بطبيعة الحال ترك الشك يخيم حول مكان ولحظة تدخل الذرة في المعركة ، لذلك كان يتعارض من حيث المبدأ مع اقامة مثل هذا السد المسبق . كذلك لا بد من الناحية العملياتية البحتة أن يؤدي انفجار الالغام النووية القوية الى تشكيل تساقطات مشعة تظل تحت رحمة الرياح التي تهب من الغرب عادة ولكن ليس بصورة دائمة .

من المؤكد أن الفعالية العسكرية لمثل هذه الوسائط تظل محدودة في المكان والزمان ، ولا يمكنها أن تشكل سدا جديا متواصلا اذا لم تستخدم بكميات كبيرة وقوة زائدة . أما على الصعيد السياسي ، فقد كان الالمان يرون في هذا السد رمزا اضافيا لتقسيم بلادهم المقسمة فعلا الى جزءين بواسطة الاسلاك الشائكة وأبراج المراقبة وجدار برلين . لذلك كله تم التخلي عن هذه الفكرة نهائيا .

أما فكرتنا الجديدة ، فهي حقل ألغام متواصل ، لا يعتمد على استثمار ضغط المتفجرات النووية ، بل على اشعاعاتها . من ميزات هذا الاسلوب خلوه من التساقطات وفعاليته التي لا تقارن بأية وسيلة نووية أخرى ، ومن السهل جعله متواصلا بنفقات قليلة من المواد الانشطارية .

خلال الحرب العالمية الثانية ، في « لوس الاموس » ، قبل الانفجار النووي الاول في « الاماغوردو » ، كان العلماء يشكون في نجاح هذا الاختبار الحيوي . لم يكن هناك في الواقع برهان قاطع على أن ردود الفعل المتسلسلة ستحدث .

وهكذا تم صنع كرة هائلة من الفولاذ ، تزن ٢٠٠ طن أطلق عليها اسم « دامبو » ، قادرة على احتواء الانفجار الكيميائي ، كما اتسمح باستعادة تلك الكيلو غرامات من البلوتونيوم المستخدمة في هذه المغامرة ، والتي لم تكن تقدر بثمن في تلك الايام . وضع « دامبو » فوق برج ، تماما كالقنبلة نفسها ، بشكل كان معه الاثنان على ارتفاع كاف فوق سطح الارض ، لتجنب التساقطات في حال نجاح التجربة . قبل اجراء التجربة بقليل ، أدت الحسابات الى تفاؤل كبير تقرر معه الاستغناء عن خدمات « دامبو » . نجح الاختبار وتبخر البرج ، كما قذف « دامبو » الى الصحراء حيث مازال رابضا الى اليوم كنصب تذكاري لذلك الحدث التاريخي . لو أمكن دفنه لاحتواء الانفجار الكيميائي ، لكان وزنه أقل من ذلك بكثير . ولكن ، في حال نجاح الاختبار ، كان لا بد للقوة الناجمة والمقدرة بحوالي ٢٠ كيلو طن أن تحدث تساقطات واسعة غير مرغوب فيها بطبيعة الحال .

ولكن ، يمكننا أن نتصور على سبيل المثال انفجار قنبلة نووية انشطارية بقوة عشر الكيلو طن (١٠٠ طن) في خزان معدني مطمور تحت الارض ، حيث يحتوي الجزء الاعلى منه على محلول كربونات الصوديوم . بعد ذلك يتم ضخ السائل المشع في أنابيب مناسبة طوال سد الحواجز المادية . عندئذ ، يستطيع انفجار بقوة ١ر٠ كيلو طن أن يجعل المرور مستحيلا على جبهة كيلو متر واحد . وهكذا ، بالسيطرة على الاشعاع ، يصبح اشعاع غاما بجانب الانابيب مساويا تقريبا لذلك الذي ينجم عن القنابل الضخمة السوفييتية المرمية فوق السد .

أما الذي يسمح لنا بالحصول على نفس النتيجة بواسطة قنابل أقل قوة بمقدار ١٠٠٠ - ١٠٫٠٠٠ مرة ، فهي امكانية توزيع الطاقة الاشعاعية وتوزيع معظم النيوترونات الناجمة بدلا من ضياعها في الفضاء .

اذا نجحت الابحاث الجارية في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي واوروبا في تحقيق الانصهار المباشر للعناصر الخفيفة بالمتفجرات الكلاسيكية ، عندئذ نكون قد اكتشفنا القنبلة النووية ذات الانصهار الصافي .

ستكون لهذا السلاح كافة خصائص القنبلة النيوترونية ، ولكن بدون فرضية الطعم الانشطاري الذي ما زال ضروريا . لو توفر مثل هذه المتفجرات لتنشيط السد ، لسهل الحصول على نشاط اشعاعي كاف وبتكاليف أقل ، اذ من المعروف ، عند تساوي القوة ، أن متفجرا ذا انصهار صاف ينتج حوالي عشر مرات أكثر من النيوترونات مما ينتجه متفجر انشطاري . كما أن أسلوب الانصهار الصافي يتطلب عشر مرات أقل من القوة الانفجارية . الا أن مسألة احتواء الانفجار ستنقص بعامل يفوق العشرة بكثير لأن الجزء الاساسي من الطاقة الناجمة عن انفجار انصهاري سوف يجرفها سيل النيوترونات الناجم عن الانفجار .

من جملة المزايا التي تنسب للقنبلة النيوترونية ، « الضغط » الضعيف الناجم عنها بالمقارنة مع القنابل الانشطارية الكلاسيكية . فالضغط الناجم عن قنبلة انصهارية صافية يكون في حدود ربع الضغط الناجم عن قنبلة انشطارية من نفس العيار ، بشكل تصبح معه مسألة الحصر مبسطة بعامل يساوي ٤٠ تقريبا . للحصول على نفس النشاط الاشعاعي لقنبلة من عيار ١ر٠ كيلو طن ، يكفي ما يعادل بضعة اطنان من المتفجر الكلاسيكي .

أما الميزة الاخرى للقنابل الانصهارية الصافية فهي الكلفة الزهيدة للمواد النووية بالنسبة للقوى الضعيفة هذه . فالمركب الحرج هو التريتيوم ، أحد نظائر الهيدروجين . اذا كانت هناك حاجة لقوة من الانصهار الصافي بكيلوات الاطنان ، عندئذ تصبح تكاليف التريتيوم باهظة . أما اذا كانت هذه القوة

بالاطنان فقط ، فان تكاليف التريتيوم لا تتجاوز بضعة مئات الدولارات . هنا يصبح سعر القنبلة هو ثمن جهاز التفجير وليس ثمن المواد اللازمة .

هناك اعتراض قد يثار ضد هذا المفهوم على صعيد أمن المتفجرات النووية ، لانها لا تخزن هنا في مستودعات كبيرة محروسة في المؤخرة ، تحت رحمة النيران النووية المعادية ، بل توضع بالقرب من الحدود ، مما يجعلها هدفا ثمينا للارهابيين والمخربين كما يقولون . الا أن هذه الاسلحة لن توضع في العراء ، بل في مخابىء خاصة تحت الارض وضمن تشكيلات الحلفاء المستنفرة وفق نظام دقيق للحراسة والمناوبة . ومهما يكن الامر ، فان المجازفات والمخاطر هنا تبقى أقل بكثير من النظام الحالي القائم .

ليست هذه الطريقة ، التي تعتمد على توزيع نيوترونات الانفجار الارضي طوال سد الحواجز ، هي الوحيدة التي يمكن تصورها . كذلك يمكن ، انطلاقا من الانفجارات الارضية ، نشر الجزيئات المنشطة بواسطة هذا الانفجار نفسه في المنطقة الواجب الدفاع عنها ، أو توزيع مواد مشعة تنجم عن مفاعلات خاصة . وهكذا توجد طرق عديدة لتعزيز « أسوار المدينة » وتحويلها ، ليس الى حواجز سلبية كما هو عليه الوضع الآن ، بل الى حقول ألغام حقيقية لا يمكن تخطيها دون دفع ثمن باهظ جدا .

بهذا الاسلوب ، يتم تحديث المفهوم القديم لاسوار المدينة ، التي لم تكن تهدد أحدا ولم يكن يشكو منها سوى المعتدي . مما لا شك فيه أن باستطاعة أوروبا الغربية أن تنام بشكل أفضل اذا بنى الاتحاد السوفييتي أمنه على مثل هذا النظام أيضا بدلا من « الهجوم المعاكس » بحوالي ٣٠٫٠٠٠ دبابة ...

في الحقيقة ، لا يراودنا أي شك أو وهم حول فرص قبول مثل هذا المشروع الجديد الذي يخالف التقاليد ويقلب الانظمة القائمة رأسا على عقب . سيقول الكثيرون عنه ، كما سبق أن قالوا عن القنبلة النيوترونية ، بأنه « شيطاني » ، وأن استخدام الاشعاع والحرب الاشعاعية أشبه باستخدام دواء أسوأ من الداء نفسه . أما استخدام الحشوات المستطيلة والمدفعية والكاسحات لفتح الثغرة فهو أمر طبيعي وانساني . كذلك من الطبيعي في نظر هؤلاء اشعال قناة السويس

كما كان يخطط الاسرائيليون قبل حرب تشرين من عام ١٩٧٣ ، أو أحراق العدو وتحويله الى فحم بواسطة النابالم !... أما منع العدو من الغزو بواسطة اشعة غاما ، فهو حل « لا انساني » يستحق الادانة ويثير الاشمئزاز والرعب ؛ ولا شك في أن الاتحاد السوفييتي سيساهم في هذه الحملة ويوجهها كما فعل بالنسبة للقنبلة النيوترونية . والسبب في ذلك أن هذا السد الاشعاعي غير قابل للتدمير : اذ ليس باستطاعة رمي المدفعية أو الحشوات المستطيلة او كاسحات الالغام أو طواقم النقابين فتح أي ممر في « حقل الالغام النيوترونية » هذا ...

مهما يكن الامر ، فلا بد أن يطلع المواطنون على أن باستطاعة العلم الحديث أن يجعل « أسوار المدينة » غير قابلة للعبور ، والاختيار متروك الآن للسياسيين بين ما قبل التاريخ العسكري والعصر النيوتروني .

* * *

١٠- الأسلحة التقليديّة

حتى الآن ، لم نتحدث عن السلاح التقليدي لهذا النظام الجديد ، الذي سيكون أكثر فعالية مما هو عليه الآن في معارك الحركة اذا استخدم في اطار هذا المفهوم المقترح .

من المعروف ان أفضل طريقة لحماية أي ملجأ هي طمره تحت الارض ، لأن هذا يجعله بمأمن من موجة الصدمة مع ساكنيه وعتادهم . استنادا الى هذا المبدأ ، يبنى الملجأ أو البلوكوس بشكل لا يبرز معه فوق سطح الارض ، على أن تركب الاسلحة على أبراج متحركة . عندما يصبح العدو على المدى المجدي للسلاح ، ترتفع هذه الابراج الهيدروليكية فوق سطح الارض لتبدأ منها الاسلحة الدفاعية بالرمي . وهكذا تبقى هذه الابراج غير معرضة لرمايات تمهيد العدو قبل الاشتباك المباشر .

يجب أن يبقى السدنة تحت الارض باستمرار ، حيث يعملون بواسطة الاجهزة الثقافية (كنظارات الافق أو النظارات المزدوجة) . أما اذا ظهر هؤلاء فوق سطح الارض ، فانهم يصبحون بمثابة « كعب آشيل » ويتعرضون بالتالي كالمهاجمين للنيران النووية الدفاعية القريبة من التحصينات ، مما يلغي الميزة الحاسمة للدفاع على الهجوم .

فيما يتعلق بفعالية هذه الاسلحة التقليدية ، يجب اعادة وضعها في الاطار العام . لو كانت الحرب مقتصرة على عمليات تقليدية ، لتلخص التكتيك المعادي كالعادة في تركيز دباباته ونيرانه على منطقة الجهد الرئيسي . ولا شك في أنه لو لم يتم الالتفاف على خط ماجينو عن طريق جبال الاردين لما استطاع هذا الخط أن يصمد طويلا أمام هجوم ألماني مركز ، وهذه هي الحجة المستخدمة

دائما من قبل خصوم الدفاع الخطي . وهي حجة صحيحة بكل تأكيد بالنسبة للحرب التقليدية . ولكن في الحرب النووية ، يصبح الهجوم غير وارد في هذه الظروف . وقد رأينا آنفا أن المجازفة بقوات الهجوم على هذا النحو يعطي فرصة مثالية للمدافع لتحقيق أهدافه . ولا شك في أن وجود صواريخ نووية في المؤخرة يمنع العدو من تركيز قواته ، وهنا تجتمع وتتكامل منجزات تقدم الاسلحة الحديثة والسلاح النووي . فالاولى تضطر العدو ، لكي يستطيع الخرق ، الى تركيز قواته أكثر من أي وقت مضى ، بينما يحول الثاني دون ذلك خوفا من التدمير الفوري الشامل .

وهكذا يمكن القول بأن هناك تكاملا شاملا بين تقدم الاسلحة التقليدية والنووية ، بحيث لا يستغنى أحدهما عن الآخر . لذلك رحب الجميع في الغرب بقدوم الاسلحة الموجهة بدقة ، التي أضيفت مؤخرا الى ترسانة حلف شمال الاطلسي . تستطيع هذه الاسلحة ، الموجهة حتى الهدف بواسطة الرامي أو القاذف او من تلقاء نفسها ، أن تصيب أهدافها بدقة كبيرة على مسافة عدة كيلو مترات ، كما تستطيع تدمير كافة أنواع المدرعات . يستخلص الامريكيون ، بشيء من التسرع ، أن باستطاعة هذه الاسلحة وحدها أن تعزز الدفاع بشكل كاف لتأمين ردع تقليدي على المسرح الاوروبي ، وهو ما يحلم به السياسيون الامريكيون منذ ظهور استراتيجية « الرد المرن » . ولكن لسوء الحظ ، اذا كانت الامكانيات النظرية لهذه الاسلحة ممتازة في حقول التدريب أثناء السلم ، فليس هذا مؤكدا أو مضمونا في ساحات المعارك وأجواء القتال الحقيقي ، وقد اعترف بذلك السيد (مالكولم كاري) ، حيث قال :

« ليس بدهيا بالنسبة لي أن تكون الاسلحة الموجهة بدقة قادرة على حل المسألة على الجبهة المركزية لحلف شمال الاطلسي . لذلك أفضل التركيز على الاسلحة ذات التأثير الشامل بدلا من تلك التي تكلف غاليا ولا تستطيع أن تدمر أكثر من هدف واحد بطلقة واحدة في أحسن الحالات . وقد أطلعني وزير الدفاع الالماني على بيان عملي ، خرجت منه بقناعة تتلخص بأن هجوم الدبابات في أراض متقطعة ومشجرة ، مع وجود الضباب والدخان ، يختلف تماما عن تدمير نقطة في فييتنام الشمالية » .

لقد تم تصميم هذه الاسلحة الدقيقة لاعطاء مدافعي حلف شمال الاطلسي ميزة المدى والدقة على تسليح دبابات حلف وارسو . ولكن لا بد من رؤية الهدف للاستفادة من هذه الميزة ، وهو أمر غير مضمون على المسرح الاوروبي بأقسوماته الكثيرة وغاباته ومناخه الصعب ، بغض النظر عن العوائق الاخرى التي قد يصطنعها العدو كرمايات التمهيد (النووية أو التقليدية) وغيرها ...

أدرك السوفييت بسرعة امكانيات هذه الاسلحة وحدودها ، فركزوا في تدريبهم على العمليات الليلية والتمويه والستائر الدخانية ، وهذه مجالات يعتبرون فيها الاوائل بين دول العالم . وهكذا زودت آلية الرأس بمولدات دخانية تستطيع تغطية كامل التشكيل خلال ثوان معدودات .

ان الدفاع الخطي الذي نقترحه ، والمحضر قبل زمن طويل ، يسمح بترك العدو يقترب في أقسومات معروفة ومعلّمة من الارض ، حيث تميل كافة الامتيازات الى جانب المدافعين ، خاصة وأن المدافع يستطيع التموه والاحتماء تحت الارض ، بينما يضطر المهاجم للتقدم فوق سطح الارض تحت رحمة النيوترونات .

يمكن للمدافع عديمة التراجع هنا أن تكون مفيدة جدا بسبب مداها المناسب ووزنها الخفيف . ولخرق تصفيح المدرعات الذي تحسن كثيرا ، يجب توفير عيارات أقوى من الذخيرة ، وهذا أسهل تحقيقا في التحصينات الثابتة منه في الدفاع المتحرك .

بهذه الاسلحة ، ينتظر المدافعون وأيديهم على الزناد . وعند وصول العدو الى المدى المناسب ، يظهر البرج المتحرك فوق سطح الارض ، حيث يستمر الرمي حتى انتهاء الاشتباك ، ثم يعود البرج للاختفاء بانتظار الانقضاض التالي . كما يلزم المدافعين أيضا أسلحة مضادة للاشخاص ، يمكن أن توضع في برج آخر يتمتع بنفس المواصفات . ولابد من التنويه هنا بأن مهمة الاسلحة التقليدية تظل محصورة في منع مرور العناصر المنفردة وأعمال التسرب ، بينما تبقى النيوترونات هي السلاح الرئيسي المتكفل بالمهمات الرئيسية الاكثر خطورة وجدية .

١١ - الكلفة التقريبيّة للسدّ

نحن لا نـدّعي هنا حل كافة المسائل التي يستلزمها مثل هذا النظام ، اذ لا بد من أعمال ودراسات تفصيلية يقوم بها متخصصون أكفاء انطلاقا من هذا المفوم الاساسي . الا أننا نستطيع تقديم تقدير شامل وتقريبي لكلفة هذا النظام .

لنفترض أن الفرجة بين المنشآت في حدود ٥٠٠ م ، للحيلولة دون قيام العدو بتدمير أكثر من منشأة واحدة بطلقة واحدة بواسطة الاسلحة النووية . ولما كان الحذر يتطلب شيئا من العمق في الترتيب (على غرار خط سيففريد) ، فان منطقة السد يمكن أن تتضمن خمسة صفوف من البلوكوسات على كامل خط الجبهة الواجب الدفاع عنها ، أي حوالي ٢٠ كم عمق تقريبا . فاذا قدرنا كلفة كل منشأة محصنة (بلوكوس) ببضعة مئات الالوف من الدولارات ، عندئذ تصبح الكلفة الاجمالية لمجموع المنشآت في حدود بضعة مليارات من الدولارات . واذا قدرنا بأنه يلزم كل منشأة عشرة مدافعين ، يصبح مجموع تعداد الرجال اللازمين ١٠٠٫٠٠٠ رجل .

من أجل اقامة حزام من الحواجز المضادة للدبابات (أضراس تنين ، حقول ألغام ، حواجز مضادة للاشخاص ، الخ ...) ، يلزمنا بضع مئات الالوف من الدولارات للكيلو متر الواحد . واذا أقمنا خمسة خطوط متتالية من المنشآت المحصنة ، أي خمسة خطوط من الحواجز ، عندئذ تصبح كلفة هذه الحواجز مساوية لكلفة المنشآت . وهكذا يمكن القول بأن المجموع الكلي ، اذا أخذنا بعين الاعتبار وسائط الاتصالات والكشف وغيرها من التوابع والملحقات ، يمكن أن يصل الى حوالي عشرة ملايين دولار للكيلو متر الواحد ، أي بكلفة اجمالية تبلغ حوالي عشرة مليارات دولار .

أخيرا ، هناك تكاليف اقامة جهاز الاشعاع اذا وجد ذلك ضروريا . أما المتفجرات النووية لمثل هذا النظام فلا تخضع لقيود الوزن والحجم كغيرها من الذخيرة النووية ، اذ يمكن أن تكون ذات تصميم بسيط مع استخدام كمية أقل بكثير من المادة الانشطارية مما عليه الحال بالنسبة للقذائف النووية أو رؤوس الصواريخ . لذلك يمكن تقدير كلفة السلاح الواحد بحوالي بضع عشرات من آلاف الدولارات . ويلزم هنا سلاح من عيار ١ر٠ كيلو طن للكيلو متر لتأمين نشاط اشعاعي كاف . لذلك نصل ، بخمسة صفوف لحوالي ١٠٠٠ كم ، الى ٥٠٠٠ سلاح ، أي بكلفة بضع مئات الملايين من الدولارات . واذا أضفنا الى ذلك جهاز الضخ والتمديدات المقامة تحت الارض ، تصبح الكلفة الشاملة للسد الاشعاعي دون المليار دولار .

في المناطق الطبيعية المناسبة ، يمكن تخفيض عدد الصفوف من خمسة الى واحد أو اثنين .

١٢ - اختيار الأسلحة النوويّة

كذلك الامر فيما يتعلق باختيار الاسلحة التي تتمركز في الخلف ، وتراقب السد مستعدة لاطلاق الرمايات النووية . هنا تتدخل عدة معايير لها أهميتها وتؤدي الى حلول متناقضة أحيانا . مما لا شك فيه أن سرعة رد الفعل تعتبر عاملا في منتهى الاهمية بالنسبة للعناصر المشتبكة في الامام . في هذا الاتجاه ، تعتبر المدفعية الكلاسيكية أكثر اغراءا ، خاصة وأن المدافع من عيار ١٥٥ مم أو ٢٠٣ مم موجودة بكثرة ، كما أن طرق استخدامها متعددة ومتنوعة . الا أن مداها قصير ، وهذا يجعلها أكثر تعرضا ، كما أن أسعار القذائف النووية مرتفعة جدا ، وخاصة بالنسبة للمادة الانشطارية .

كذلك يمكن تأمين صاروخ ذي مدى أبعد (٥٠ ــ ٥٠٠ كم) مزود بتوجيه ذاتي ، يستطيع الانتشار والتموه في العمق ، بحيث يكون بمأمن من الكشف ورمايات الابطال المسبقة التي ينصح بها سوكولوفسكي . ومن المعروف أن الرأس النووي يسمح ، بسبب حجمه ، بالاقتصاد في المواد الانشطارية بالمقارنة مع قذائف المدفعية . كما يمكن أن يتدخل أخيرا صاروخ ، يصل مداه من ٥٠٠ ــ ١٠٠٠ كم ، على طول السد ، وهذا من شأنه تأمين تركيز قوة نارية ساحقة خلال بضع دقائق على القوات المهاجمة في أية نقطة تختارها للخرق . هناك أيضا الطائرات التكتيكية (وخاصة ذات الاقلاع القصير أو العمودي) التي يمكن أن تساهم في توجيه الضربات تحسبا من تدمير المطارات بواسطة الضربة الاولى .

أما الميزة العملياتية الكبرى للطيران التكتيكي على الصواريخ البعيدة المدى ، فهي قدرتها على البحث عن الاهداف المتحركة وتدميرها ، بينما تلزم مهلة التدخل الصواريخ بالتعامل مع الاهداف الثابتة أو التي تتحرك بشكل

بطيء جدا . لذلك ليس على القوات المدرعة المتقدمة في وضعية الانتشار أن تخشى صواريخ حلف شمال الاطلسي بكل ما طرأ عليها من تحديث وتحسين .

علاوة على ذلك ، يمتاز الطيران التكتيكي بأنه موجود منذ زمن بعيد ، وان طرق هجومه مدروسة ومجربة ، شريطة ان ينجو من الرشقة الاولى ومن الدفاع الجوي ، وهو أمر سنتحدث عنه فيما بعد .

كذلك يمكن أن تستخدم لصالح النسق الاول صواريخ ذات مدى قصير شبيهة بتلك المسماة « دايڤي كروكت » ، والتي ألحقت في مطلع السينات على كتيبة المشاة أو فوج الاستطلاع المدرع . يتراوح مدى هذا السلاح بين ٢ ــ ٤ كم ، ويجب أن يرمى بالنظر وعلى المدى المجدي .

وهكذا يمكن القول بأن الحل الامثل يكمن هنا في اختيار مجموعة متنوعة من هذه الوسائط . أما بالنسبة لاختيار الرأس النووي ، فلا شك لدينا بأن الواسطة المثلى للدفاع المباشر عن السد هي القنبلة النيوترونية التي تؤثر على المهاجم وحده ، والتي يمكن أن تستخدم أقرب ما يمكن من المدافعين نظرا لضعف تأثير عامل الضغط فيها . بل يمكن استخدامها أحيانا فوق المنشآت الدفاعية دون التأثير عليها ، خاصة وأن هذه قد أقيمت أصلا بشكل تستطيع معه مقاومة تأثير الاسلحة المعادية الشديدة الانفجار . هنا تظهر الميزة الهائلة التي ينفرد بها الدفاع على الهجوم وفق مفهومنا الجديد هذا . لا تتوفر هذه الميزة في الحرب كما يتصورها المعسكران في الوقت الحاضر ، لأن أمن القطعات الصديقة المكلفة « بالدفاع المتحرك » يؤدي في معظم الحالات الى الحد من سهولة استخدام الاسلحة التكتيكية ، بل ويحول دون هذا الاستخدام عند التحام القوات وتشابكها كما لا بد أن يحدث في الحرب الحركية .

وأخيرا ، تقوم النيوترونات المتولدة بكميات كبيرة بتنشيط كربونات الصوديوم في السد الدفاعي ، في نفس الوقت الذي تدمر فيه قوات العدو الذي تحاول عبوره . وهكذا يتم ضرب عصفورين بحجر واحد .

نتيجة هذه القدرة الدفاعية والرادعة للسد النيوتروني ، يبدو من الممكن اجراء تخفيض كبير على حجم القوات التقليدية العاملة لحلف شمال الاطلسي .

الا أنه لا بد لنا أن نتوقع ، في حال فشل الردع ، خرقا ممكنا للسد ، مهما كان هذا الاحتمال ضعيفا . كذلك يظل من الممكن توقع فرضيات قيام العدو بالتفاف عمودي بواسطة الفرق المحمولة جوا أو تنفيذ انزالات على المؤخرات ، وهي احتمالات واردة تماما في صلب العقيدة السوفييتية .

لقد أثبت التقدم الذي طرأ على التكنولوجيا التقليدية ، منذ الحرب العالمية الثانية ، والذي وضع موضع التجربة في حرب « يوم الغفران » ، مدى تعرض الطيران للصواريخ المضادة للطائرات . لذلك من الضروري تزويد هذا السد الارضي بوسائط مكثفة مضادة للطائرات ، سواء على السد نفسه وفي كامل عمق الارض المراد الدفاع عنها . عندئذ ، لا بد أن تتعرض وسائط النقل المعادية اللازمة للعمليات المحمولة جوا لخسائر فادحة ، مما يؤدي الى الحد من خطر الالتفاف العمودي الذي تحدثنا عنه آنفا . كما تبدو الانزالات البحرية اليوم ، من نوع « أوفرلورد » ، شبه مستحيلة بسبب تعرض سفن السطح للاسلحة النووية . الا أنه لا يجوز استبعاد هذا الاحتمال نهائيا ، كما لا يجوز استبعاد فرضية الخرق البري . لذلك من الضروري توفر قوات مدرعة تقليدية للتصدي لمثل هذه الاخطار . وقد أثبتت عملية الانزال « أرنهايم » أن الانزالات الجوية الناجحة لا تستطيع الصمود في وجه الفرق المدرعة . ان هذا النوع من العمليات يبقى أشبه برأس حربة للعمليات البرية الكلاسيكية ويستلزم اجراء خرق ناجح للسد الدفاعي . وهكذا لا بد من توفر قوات كلاسيكية جاهزة خلف السد . الا أن حجمها لن يصل بطبيعة الحال الى ٩٢ فرقة ، وهو العدد الذي اعتبر ضروريا لكي يتمكن حلف شمال الاطلسي من وقف زحف الجيش الاحمر ، والذي خفض الى النصف بعد وصول الـ (٧٠٠٠) سلاح نووي تكتيكي للحلف ، وذلك في الفترة التي لم تكن هذه الاسلحة قد توفرت لدى الخصم بعد . يمكن تخفيض هذا العدد أيضا ، اذا أخذنا بعين الاعتبار القوة الايقافية للسد والخسائر الفادحة المترتبة على اختراقه من قبل العدو . الا أن تخفيض عدد الفرق المقرر حاليا لحلف شمال الاطلسي يجب أن يدرس بدقة . في هذه الحالة ، هناك أمر مؤكد : وهو أن معظم الاعداء الذين قد ينجحون في اختراق السد النيوتروني سيكونوا قد تعرضوا لجرعات خطيرة من الاشعاع ، سواء في الحزام الاشعاعي نفسه أو نتيجة رمايات أسلحة الاشعاع المعزز .

يمكن للحسابات التقريبية المستندة الى وتيرة تقدم القوات المدرعة في مثل هذه الظروف أن تعطي مقدار الجرعات التي تلقتها العناصر . ومما لا شك فيه أن معظم الاحياء من الطواقم يكونون قد تلقوا جرعات خطيره من أشعة غاما ، تصبح مميتة بعد فترة من الزمن دون أن تؤدي بالضرورة الى وضعهم خارج المعركة بمجرد اجتياز الحزام الاشعاعي . خلال ساعات ، يصاب الافراد بما يسميه العلماء « العجز الوظيفي » ، الذي تستمر مضاعفاته أياما أو أسابيع حسب درجة الاشعاع المتلقى .

ان وجود قوة مدرعة سريعة الحركة خلف السد ، مزودة بمدفعية نووية ، من شأنه الحيلولة دون التفكير بعمليات الانزال الجوي التي تزيدها صعوبة وسائط الدفاع الجوي بطبيعة الحال . أضف الى ذلك أن جميع الذين يترددون في « القفز الى المجهول » سيجدون في هذه القوات المدرعة نوعا من الحفاظ على التقاليد المألوفة . كما يساهم هذا ايضا في دحض الحجة التي يتذرع بها بعضهم ، وهي الدفاع الثابت والافتقار الى الحركية العزيزة على القلوب ، والتي أصبحت مقدسة منذ غودريان في كافة الاكاديميات العسكرية . نحن نعتقد بأن هذه الحصون الثابتة ذات هدف واحد : هو السماح لحركة النيران النووية بالانتقال بحرية على طول الجبهة الدفاعية دون أن نعرض لرمايات العدو النووية أهدافا ثمينة سهلة .

مما لا شك فيه أن تسليح الالوية والفرق سيستفيد من كل تقدم حققته التكنولوجيا في الوقت الحاضر ، كما يجب أن يتضمن مدفعية نووية بطبيعة الحال . هنا تحتفظ بمكانتها المدافع من عيار ٢٠٣ مم والصواريخ التكتيكية التي ترمي قذائف نيوترونية أو تقليدية على حد سواء . كذلك يبقى هنا دور أساسي للحوامات م/د التي تعطي مردودا جيدا في قنص الدبابات العدوة المتسربة . نحن لا نريد هنا أيضا أن نحل محل الاختصاصيين ولا اعطاءهم نصائح تتعلق بحجم أو تنظيم أو تسليح القوات . الا أن المسألة الشائكة ستكون منحصرة في البقاء بعد الضربة النووية المعادية الاولى ، وهذا موضوع لا يستحيل حلـه رغم كل شيء .

١٣ - تحديد الأهداف ...
والتكتيك النوويّ الدفاعي

يجب أن ترى ولا ترى ، أن تكون محميا وأن تستطيع الرمي . هذه هي ألف باء الجندية التي يتعلمها كل عسكري منذ الايام الاولى لدخوله في الجيش . لم تتغير هذه المسلّمات الاولية الازلية في العصر الذري ، بل على العكس تماما ، فكلما زاد فتك الاسلحة ، فرضت هذه المبادىء نفسها بشدة أكبر .

ان الاسلوب الدفاعي ، الذي نقترحه هنا ، يبرز أولا المبدأ الثاني . فالحماية من النيوترونات لا يمكن أن تؤمن الا تحت الارض ، وهذا ما يؤدي الى التركيز على فارق التعرض بين الهجوم والدفاع ويجعله عاملا حاسما كما ذكرنا آنفا .

أما المبدأ الثاني : امكانية الرمي ، فترتبط ارتباطا وثيقا بالاول . فالملتجىء يستطيع كشف المهاجم بسهولة أكبر ، وهذا ما يتيح له امكانية رميه وتدميره بطبيعة الحال . وهكذا نرى أن المبادىء الثلاثة تظل هنا في صالح المدافع أكثر من المهاجم .

بالتوازي مع المنجزات التقنية التي تحققت في مجال قوة الفتك ودقة الرمي للاسلحة الجديدة ، حدثت ثورة أخرى ذات مغزى في مجال تحديد الاهداف ، وبخاصة المتحركة منها . فقد انضمت الى أجهزة المراقبة التقليدية سلسلة من الاجهزة والرادارات والوسائط الالكترونية السمعية والبصرية مهما كانت شروط الرؤية والعوامل الجوية . وقد وضعت كافة هذه الوسائط موضع التجربة والاختبار في فيتنام ، حتى أصبح من الممكن القول الآن بأن كل هدف مكتشف يدمر ، وكل ما يتحرك يكتشف . أما الطريقة الوحيدة للنجاة

من الاكتشاف والتعليم ، فهي التمويه والثبات ، وهذا أمر يسهل تحقيقه في الاسلوب الدفاعي الجديد المقترح ، بينما يصعب كثيرا على المهاجم مهما كانت طبيعة الارض .

لنتصور الآن احدى منشآتنا الدفاعية المطمورة والمموهة تبرز فجأة فوق سطح الارض (كما شرحنا آنفا) ، محاطة بمنشآت أخرى كاذبة ومزيفة ، لتفتح نيرانها النيوترونية الصاعقة ، والتي تعادل بقوتها نيران عشرات الفرق المدرعة التقليدية ، في آن واحد على عرض الجبهة وعمقها في القطاع المخصص لها . مما لا شك فيه أن النتيجة ستكون مذهلة . ونحن هنا لا نعتمد على الخيال والاحلام ، بل على الحقائق العلمية الثابتة والمدروسة ، خاصة وأن أختيار ساحة المعركة يعود للمدافعين الذين بستطيعون استغلالها كيفما يشاؤون .

منذ عشرين عاما ، كان تحديد الاهداف كابوس التكتيكيين . في « ألعاب الحرب » ، كان من الصعب دائما حصر « الهدف الامثل » ، الذي يظل متحركا أو لا يتناسب مع كلفة الضربة النووية . في الدفاع المتحرك ، كانت هيئات الاركان والمدفعيون يعانون من نقص الاهداف ، بينما تشكو القوات المشتبكة ، من المشاة والدبابات ، من كثرة الاهداف التي يطلب منهم التعامل معها بأسلحتهم التقليديـة .

في العقيدة الحالية لحلف شمال الاطلسي ، لا تستخدم الاسلحة النووية الا في الممرات الاجبارية أو في المناطق التي تبلغ فيها كثافة العدو درجة مناسبة . الا أن العدو ليس مجنونا ، وهو المتفوق عدديا ، لكي يتيح للخصم فرصة ضربه وتدميره . لذلك تنص العقيدة السوفييتية على ضرورة « تجنب الممرات الاجبارية » وعدم الدخول فيها الا عند الضرورات القصوى ، كما تنص على عدم التجمع والتحشد الا عند التماس المباشر مع العدو بهدف الخرق في المنطقة المختارة والزمن المناسب .

أما أسلوبنا المقترح ، أي السد النيوتروني المحصن ، فمن شأنه ارغام الخصم على التحشد بسرعة للوصول الى ثغرة أو نقطة ضعف ، بمعدل سرية

في الكيلو متر الواحد على الاقل ، اذا أراد المرور . وهكذا ، لم يعد المدافع في الامام يخشى التفوق العددي ، كما لم تعد هيئات الاركان تشكو من قلة عدد الاهداف المناسب ، شريطة عدم الذهاب للبحث عن العدو في أماكن تو جده ، بل انتظاره في المكان الذي نريد . أما الفكرة الواردة في عقيدة « الرد المرن » ، والتي تنادي بالرمي على النسق الثاني في حال استحالة الرمي على النسق الاول بسبب التحامه مع القوات الصديقة ، فليست أكثر من وهم ، لأن النسق الثاني هذا لن يتحرك بتشكيل مكثف من شأنه تعريضه للرمايات النووية .

كانت الرمايات البعيدة ، المسماة « رمايات المنع » ، تنجم بخاصة عن استحالة نجاح النيران التقليدية في سحق حشود العدو الذي يحاول عبور الخطوط الدفاعية . فقد كانت الدبابات تستعصي على نيران المدفعية الكلاسيكية بسبب تصفيحها القوي وحركتها الدائمة . لذلك كان الرد الوحيد على هذا التفوق للحركة على النار يكمن في التجميع السريع للتعزيزات المدرعة من أجل سد الثغرة . وهكذا كانت الدبابة ، ليس بسبب تسليحها بل بفضل حركيتها ، أفضل سلاح مضاد للدبابات . وقد تم تصعيد الحرب حتى أصبحت شاملة نتيجة العجز عن ايقاف تقدم المقاتلين : حيث بدأت الهجمات على خطوط المواصلات لمنع وصول النجدات وعلى المؤخرات لعرقلة الامداد والتموين ، ثم ما لبثت أن انتقلت الى جذور القوة العسكرية نفسها كالمصانع والتجمعات السكانية حتى انتهت بكارثة هيروشيما . ويمكن القول بتعبير آخر أن العجز عن كسر مخالب وأسنان الحيوان المعادي أدى لانتقال الضربات الى بطنه وذنبه . أما اليوم ، بوجود النيوترونات ، أصبح من الاسهل سحق الهجوم المدرع نفسه بدلا من التعرض للاعماق البعيدة والمجازفة بتحريض الرد الانتقامي المؤكد .

وهكذا نلمس هنا نتائج هذه الثورة على الصعيد الاستراتيجي والسياسي والمعنوي ، حيث لم يعد التصعيد ضرورة للمدافع كما كان عليه منذ ثلاثين عاما . لحل مسألة دفاعية عسكرية ، لم يعد ضرب المدنيين أمرا حتميا الا اذا فضل العدو نفسه التصعيد الانتحاري له وللجميع . بهذا يحكم الاغلاق بين الردع التكتيكي والردع الاستراتيجي لمصلحة الاطراف كلها .

* * *

لنحاول الآن تقدير الاحتياجات الكمية من القذائف النووية التي تشكل العنصر المركزي للدفاع . ليس من السهل هنا وضع معايير ثابتة ، الا أنه لا بد من التنويه بأن الـ (٧٠٠٠) سلاح تكتيكي ، الموضوعة تحت تصرف حلف شمال الاطلسي منذ ما يقرب من عشرين عاما ، تبدو أكثر من اللازم اذا وجد كل سلاح هدفه . الا أننا ذكرنا آنفا أن هذه هي مشكلة حلف الاطلسي الذي بقي عاجزا عن وضع عقيدة مناسبة لاستخدامها الفعلي . اذا افترضنا أن نصف هذه القذائف فقط قد نجا من « معركة النيران الاولية » التي ينادي بها « سوكولوفسكي » ، يكفي أن يبقى منها ما هو ضروري لتدمير قوات الجيش الاحمر بصورة مؤكدة . من أجل عبور السد النيوتروني العتيد ، لا بد لهذه القوات أن تسعى للمرور في مكان ما ، وأن تعرض بالتالي عددا كافيا من قواتها للتدمير . ومهما كان الاسلوب المتبع ، سوف تتشكل آليا أهداف كافية عند أقدام الحصون اذا أراد العدو حشد قواته للعبور . عند ذلك يكفي حساب الحجم التقليدي (الكلاسيكي) للعدو لمعرفة عدد القذائف الضرورية والكافية لتدمير كافة الوحدات المقاتلة التي يمكن للعدو أن يجازف بها نظريا في هذه المغامرة المستحيلة . مبدئيا ، تكفي لذلك بضعة آلاف . فالمهم هنا هو عدم الافتقار الى الذخيرة لدرجة نتردد معها في صرفها عندما تحين الفرصة المناسبة . اذا كان حلف شمال الاطلسي قد استطاع ، منذ عشرين عاما ، أن يجمع (٧٠٠٠) سلاح نووي تكتيكي في اوروبا ، فان انتاج البلوتونيوم ما زال مستمرا في الغرب ، كما أن كميات المادة الانشطارية قد بلغت طاقة تدميرية تكتيكية غير محدودة تقريبا ؛ كذلك زادت الفعالية العسكرية للتقدم التقني ! مع ظهور الاشعاعات المعززة) بمقدار ثلاثة أضعاف . لذلك بقي على التكتيكيين الغربيين أن يستثمروا الى أقصى حد ممكن التفاوت الجديد بين الدفاع والهجوم ، والذي أصبح لصالحهم دون ريب . على هؤلاء تقدير كميات القذائف اللازمة لردع العدو عن الهجوم البري(١) . ومهما كان قرارهم ، ٣٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠

(١) ـ تنص العقيدة السوفييتية على أن جبهة الهجوم للفرقة يجب أن تتراوح بين ٥ ـ ٨ كم . لذلك تكفي ٢ ـ ٣ قذائف نيوترونية لتحطيم الموجة الاولى للهجوم . أما اذا تم الهجوم في آن واحد من قبل ٣٠ ـ ٤٠ فرقة سوفييتية ، عندئذ نحتاج الى مئة قذيفة تقريبا ، وهكذا ...

أو أكثر ، فان المواد الاولية متوفرة ، والتكاليف المادية تظل متواضعة هنا بالمقارنة مع تكاليف القوات التقليدية . ولا شك في أن الرقم (٥٠٫٠٠٠) دولارا لسلاح واحد جديد ، ولو ضرب بأربعة ، لن يصل الى نصف ثمن دبابة أو عشر طائرة حديثة . وهكذا فان (١٠٫٠٠٠) سلاح نووي لن تكلف أكثر من ملياري دولار . فلو ضربنا هذا الرقم باثنين ـ على سبيل الحيطة ـ فان الناتج لن يبلغ عشر ما يبدده حلف شمال الاطلسي سنويا على دفاع وهمي مضلل .

خلاصة القول ان الكلفة الاجمالية للدفاع عن أوروبا وفق الاسلوب الجديد المقترح ، ستكون مرتين أو ثلاث أقل مما يكلفه النظام المتبع في الوقت الحاضر .

* * *

١٤ - بعض المسائل السّياسيَّة

من جملة العقبات السياسية التي تعترض هذا المفهوم الجديد في الولايات المتحدة ، الخوف من قيام جماعات من الارهابيين بالاستيلاء على بعض الاسلحة النووية المنتشرة على الاراضي الاوروبية في وقت السلم . وقد رأينا سابقا أن تجميعها حاليا في مستودعات محروسة جيدا ، ولكنها معلمة تماما من قبل الخصم ، يعتبر مجازفة عملياتية كبيرة في وجه أول ضربة مفاجئة قد يوجهها السوفييت . لذلك فان انتشار هذه الوسائط ، مع حمايتها وتمويهها ، كفيل بالتصدي لمخططات الخصم واحباطها . الا أن هذا يستلزم تدابير حيطة اضافية لمواجهة تهديد الارهابيين الذي أصبح ماثلا في أذهان السياسيين أكثر من خطر الحرب البعيد الاحتمال في الوقت الحاضر .

في السنوات الاخيرة ، ظهر في الولايات المتحدة مفهوم أمني جديد يتعلق بالرؤوس النووية ، يعتمد على فصل الجزء النووي من السلاح عن باقي الجسم حتى لحظة الاستخدام . يمكن ربط هذا الجزء بآلية خاصة للتدمير والتلوث في حال التلاعب به من قبل أي طرف غير مرخص له بذلك . كما يمكن اضافة مادة خاصة الى جهاز التلوث ، تصدر نيوترونات وأشعة غاما قابلة للكشف من مسافات بعيدة . فاذا سرق هذا الجزء في أسوأ الاحتمالات ، عندئذ يمكن تتبعه من بعيد بواسطة أجهزة الكشف الخاصة .

في هذه الحالة ، يصبح الاشراف السياسي (أو الحكومي) على السلاح النووي التكتيكي مقتصرا على « قلوب » الاسلحة ، التي توزع بسرعة على الوحدات العملياتية (بواسطة الحوامات مثلا) عند اعطاء اشارة الانذار كما حدث أثناء الازمة الكوبية . ولا شك في أن من الممكن العثور على حل يحفظ

في آن واحد الاشراف السياسي والحيطة ضد الارهاب والامن العملياني عن طريق الانتشار الاوسع وحماية الذخيرة .

ان قليلا من الخيال لا بد أن يسمح بالتوفيق بسهولة بين الحيطة النووية أثناء السلم ، العزيزة على السياسيين ، والمستلزمات العملياتية التي تواجه العسكريين أثناء الحرب .

هناك اعتراض سياسي آخر يسمع أحيانا ، وخاصة في فرنسا ، على مبدأ السد التكتيكي ، أو « الردع التكتيكي » بالمعنى الاوسع ، وهو أن قبول المعركة التكتيكية يلقي ظلالا من الشك حول تصميم المدافع على اللجوء الى التصعيد الاقصى ، الذي ما زال يعتبر أساس الردع في فرنسا . ولكننا رأينا أن الدفاع النووي التكتيكي هو الذي يرغم العدو على أن يكون البادىء بالتصعيد لاجتياز الحصون ، مما يجعله المسؤول عن تحمل المجازفة الرهيبة . لذلك يرتدي التوضع الجغرافي للبطاريات النووية التكتيكية أهمية كبرى .

ضمن هذا الاطار ، يصبح من المعقول وضع بعض القواعد في الولايات المتحدة نفسها ، بمأمن من الهجمات السوفييتية المباشرة بواسطة الردع الاستراتيجي الامريكي . وهكذا يمكن تأمين التغطية النووية للسد بواسطة هذه الاسلحة البعيدة المدى ، التي لا بد أن يؤدي تدميرها المسبق (وهو شرط أساسي لنجاح الهجوم) الى اثارة الرد الاستراتيجي الامريكي بصورة آلية .

يمكن للتكنولوجيا الحالية أن تسمح بتطوير صاروخ عابر للقارات ، قابل للحركة ، لا يتجاوز وزنه بضعة آلاف الليبرات ، قادر على اسقاط قنبلة نيوترونية عند السد الدفاعي بعد مسيرة في الجولا تتعدى العشرين دقيقة . ولا شك في أن الصواريخ المستخدمة لهذه المهمة التكتيكية لن تحتاج الى الرؤوس المتعددة ، مما يجعل كلفتها أقل بكثير .

قد يكون الاعتراض الاساسي هو على وضع البطاريات الدفاعية على مثل هذه المسافة من الجبهة بسبب المهلة الزمنية اللازمة للتدخل . اذ يحتاج الامر الى حوالي الساعة بين طلب الرمي من قبل المدافعين في الامام . الذين يخضعون لضغط الهجوم المعادي ، ووصول الانفجار النيوتروني لصعق المعتدين .

انها مدة طويلة ولا شك ... وهذا ما يبرر ضرورة خط الحواجز الثابتة ألتي تكفي لكسب هذه المهلة الزمنية بانتظار وصول التعزيزات النيونرونية الآتيـة من العمـق .

لذلك ، اذا قبلت فرنسا مثلا أن تساهم في مثل هذا المفهوم وتقدم جزءا من التغطية النووية للسد ، عندئذ تصبح مهلة التدخل تتراوح بين ٧ — ٨ دقائق . في مثل هذه الحالة ، اذا افترضنا سرعة تقدم العدو عبر الحواجز في حدود ٢ كم في الساعة ، لن يكون في استطاعة الوحدات المعادية أن تجد الوقت الكافي للخروج خلال نصف ساعة من منطقة فعالية السلاح النيوتروني . كما أن معاكس البطاريات على الارض الفرنسية من شأنه التسبب في تدخل القوات الاستراتيجية لهذا البلد . وهكذا تحكم الذرة اغلاق الردع النووي من أعلى السلّم الى أسفلها بشكل أكثر قابلية للتصديق .

١٥ - الجناح الثالث للردّع

من المناسب أن نحاول الآن ايجاد الثغرة التي يمكن أن تحدث مستقبلا في هذا النظام الجديد الذي نقترحه كضمانة للسلام عن طريق الردع في المستقبل القريب . لنحاول اذن التنبؤ بالانجاز التقني الذي من شأنه أن يعيد للهجوم البري فرص نجاحه في أحد الايام ، خاصة وأن أحدا لا يمكنه أيقاف التقدم والتطور ... كما سنحاول التكهن بتكنولوجيا المستقبل التي ستقدم لنا الدرع الواقي والتصدي الفعال لعودة شبح الحرب من جديد . كذلك سنضيف في الوقت نفسه ، الى جناحي الردع الحاليين ـ الارهاب الاستراتيجي القائم والدفاع التكتيكي كما نقترحه ـ جناحا ثالثا يأخذ بعين الاعتبار الفشل المحتمل للجناحين الاولين .

لقد أثبتنا آنفا أن من السهل ايقاف الغزو البري بالاشعاعات النيونرونية ، ولكن وسائط الحركة ، الجامدة نسبيا منذ الحرب العالمية الثانية ، قد تقوم بدورها بوثبة كبرى الى الامام ، من شأنها تهديد السد الدفاعي الذي تحدثنا عنه سابقا .

منذ عشرين عاما ، لاحظ التكتيكيون في « حصن ليفنوارث » أن أمل الهجوم الوحيد في النجاح يكمن في ايجاد وسائط حركة تقع بين التعرض الكبير للوسائط الجوية الحالية وتعرض المدرعات لاشعاع النيوترونات الرهيب ، لأن بطء حركتها لا يمكنها من التغلب على سرعة تدخل المدفعية النووية .

لم تتحقق أمنية التكتيكيين حتى الآن في جعل المدرعات « تطير » فوق الحواجز الارضية ، والتي قدر لها المتخصصون أن تتحقق في حدود عام ١٩٨٠ . ربما لن تتحقق هذه الامنية مطلقا ، ولكن اذا حدث في أحد الايام أن تتمكن المدرعات ، التي تزيد سرعتها الحالية بمقدار عشرة أضعاف ، من

الارتفاع بضعة أمتار فوق سطح الارض ، عندئذ سيكون من الصعب على المدفعية النووية أن تتدخل في الوقت المناسب لاصابة أهداف لا تتأثر بالحواجز الطبيعية أو الاصطناعية التي تحدثنا عنها . بهذا يصبح «الالتفاف العمودي »هو القاعدة، حيث يتحقق بواسطة الفرق المدرعة القادرة على استخدام الارض مع الانعتاق من قيودها ، وليس بواسطة الحوامات أو الطائرات الثقيلة المعرضة للاسلحة الحديثة المضادة للطائرات .

في هذه الحالة ، تعود للهجمات البرية أهميتها ، ويعود الغزو ممكنا من جديد . ولكن ، أليس لهذا الوضع علاج ناجع ؟ مما لا شك فيه أن باستطاعة التكنولوجيا الحديثة والتكتيك القديم أن يقدما لنا الجواب على هذا السؤال .

نعود الى فييتنام مرة أخرى لنجد جوابا ممكنا على هذا التهديد المتوقع . اذا كان باستطاعة الكتكنولوجيا أن تسمح للمعتدي ، في أحد الايام ، بالتفوق على السد الدفاعي المقترح ، فان شكل الدفاع الممكن آنذاك سيكون نفس الذي طبقه « الفييتكونغ » و « الفييتمين » ، وهو المقاومة المنظمة على أساس حرب العصابات ، والذي برهن على فعاليته وجدواه ضد جيشين حديثين كالفرنسي والامريكي . لقد استطاع هذان الجيشان غزو الهند الصينية بكاملها ، أو كافة مراكزها الهامة على الاقل ، الا أنهما لم ينجحا مطلقا في السيطرة على السكان والاجهاز على المقاومة . وهكذا استمر الصراع مدة ثلاثين عاما حتى اضطر الفرنسيون ثم الامريكيون للجلاء والرحيل . في الواقع ، كانت الجيوش النظامية هنا تتمتع بقوة نارية ساحقة ، الا أنها لم تكن تجد الاهداف المناسبة ، بينما كان رجال العصابات (الثوار) يجدون كافة الاهداف اللازمة دون أن تكون لديهم القدرة النارية الكافية لتدميرها . وقد تكررت هذه الظاهرة نفسها في الجزائر ، حيث كان الثوار يستغلون الارض والسكان ، فيضربون في الزمان والمكان المناسبين ثم يختفون ليظهروا مرة ثانية في مكان آخر وزمان آخر . وهكذا لم يكن الطرفان يلعبان نفس اللعبة ...

لنتصور الآن ما يمكن للتكنولوجيا الحديثة أن تقدمه للطرفين ، حيث يمكن للقوات غير النظامية أن تمتلك ، نتيجة الصناعة المحلية أو المساعدات

الخارجية ، صواريخ موجهة تحمل باليد ، م/ط و م/د ، مما يساعدها على تدمير كل ما تجده أمامها من أهداف . لنتصور مذبحة أرتال المدرعات وغيرها في فييتنام مثلا ، لو كان في حوزة « الثوار » هذه الحشوات الجوفاء الخفيفة ، أو مذبحة الحوامات بواسطة الاسلحة م/ط الفردية من طراز « ردآي » الامريكية أو « ستريلا » السوفييتية .

كل هذا يدل بوضوح على أن المسألة لا تحل بمجرد غزو الارض المعادية ، وان التقدم الحالي للاسلحة يضيف جناحا ثالثا للردع ، هو « ردع الاحتلال » .
خلاصة القول هنا أن أي انجاز تكنولوجي في مجال الحركة ، يجعل من الممكن استئناف العمليات الهجومية ضد « السد » البري واحتلال أرض العدو ، لا يعني مطلقا نهاية العمليات . فردع الاحتلال ، أو تصميم شعب بكامله على الدفاع عن وطنه وفق مبادىء الحرب الشعبية التي نادى بها « ماوتسي تونغ » ، قد أصبح الآن عاملا رادعا لا يستهان به .

الا أنه لا بد من القول بأن هذا الجناح الثالث للردع لا يمكن أن ينوب عن الجناحين الاولين وهما : الردع الاستراتيجي والردع التكتيكي ، خاصة وأن كثافة السكان وعقليتهم تختلف تماما في اوروبا عنها في فييتنام أو الجزائر ، وما أثبت فعاليته هناك قد لا يكون مجديا هنا . ولا شك في أن ايقاف العدو على الحدود أفضل من قتال الغازي داخل البلاد .

* * *

الفصل الخامس

الخاتمة

١ ـ السّياسة والتكتيك

« ان الانكليز يقدمون الآلات ، بينما يقدم الفرنسيون الارواح » ، هـذا ما كان يردده « جان فيردونيه » من راديو « شتودغارت » خلال الحرب العالمية الثانية تنفيذا لتوجيهات « غوبلز » في محاولة لاحداث ثغرة نفسية في صرح التحالف الفرنسي ـ البريطاني .

وعندما يصر أصدقاؤنا الامريكيون على « الردع التقليدي » في القـارة الاوروبية بواسطة العدد الكبير من الكتائب اللازمة لاستراتيجيتهم المعتمدة على « الرد المرن » ، والتي يقدمون لها طواعية كافة الاقواس والسهام اللازمة ، يصبح باستطاعتنا أن نعيب عليهم أيضا تقديم الآلات وترك حلفائهم يقدمون الصدور . الا أنه لا يجوز أن يغرب عن بالنا مساهمة أمريكا في الدفاع عن أوروبا ب (٣٠٠ر٠٠٠) رجـل من أبنائها ، و(ن على كافـة رجال الدولـة والمسؤولين في كافة البلدان الحليفة أن يضعوا نصب أعينهم هدفا سياسيا واحدا مشتركا ، وهو السعي قدر المستطاع لاحلال الآلات محل الصدور بهدف تأمين الردع والدفـاع .

لقد حاولنا البرهان على أن الهجوم وحده هو الذي يتطلب أعداداً كبيرة من القوات ، وأن حظه في النجاح يبقى ضئيلا جدا أمام الحصون النووية التي نقترحها .

اذا لم يعمد الغرب ، خلافا لما يؤكده باستمرار ، الى الانسياق وراء مخططات عدوانية غامضة ، فان من مصلحته دون شك أن يتبنى سياسة دفاعية فعالة ، دون أن يضحي كالعادة بملايين الشبان من أبنائه ، وردعا ناجعا لا يعتمد على التهديد بنسف الكرة الارضية بكاملها .

مع الاسف الشديد ! نحن لسنا واهمين مطلقا فيما يتعلق بفرص نجاح هذا المشروع المقترح لاسباب سياسية . اننا نشعر بأننا نحارب طواحين هواء ... فهناك خرافة التصعيد الثابتة الجذور في الولايات المتحدة ؛ وفي أوروبا ، عقدة خط ماجينو التي مازالت ماثلة في الاذهان ، مما يجعل الكثيرين يستعبدون سلفا كل ما يمت الى هذا الخط بأي شبه أو صلة ؛ وهناك أيضا شبح الرعب النووي الذي مازال أساس الردع في الغرب منذ هيروشيما ، والذي يبدو أنه لم يعد يخيف غير صانعيه من الغربيين .

من المعروف أن السياسة هي « فن الممكن » ، وهذا ما حاولنا عمله فعلا . ان تطور العلوم والتقنيات الحديثة قد جعل من الممكن والسهل اقامة الردع والدفاع على أسس جديدة . ولا شك في أن على « فن الممكن » أن ينتهز هذه الفرصة التاريخية دون ابطاء .

الا أن كل الدلائل والاسباب التي أشرنا اليها في سياق الحديث تؤكد أن أمريكا لن تغير اتجاهها في الوقت الحاضر على الاقل(١) .

أما المانيا ، المعطلة عسكريا في المجال الذري ، فلا تملك سوى اتباع توجيهات حاميتها الكبرى عبر الاطلسي . لقد كانت ولا تزال تحلم « باستراتيجية أمامية » تستطيع الحفاظ على أراضيها ، وهذا أمر طبيعي . بهذا المعنى ،

---

(١) ـ كان هذا صحيحا في عهد الرئيس السابق كارتر . الا ان الانعطاف قد بدأ فعلا في عهد الرئيس « ريغن » كما لا يخفى على القارىء . **(المترجم)**

كانت استراتيجية أيزنهاور حول « الرد الانتقامي الشامل » تمثل حلا مرضيا ، الا أنه أصبح مجرد وهم منذ أن تم تحييد الطيران الاستراتيجي الامريكي بموجب معاهدة « سالت » . كما أن نظرية « الرد المرن » لن تنجح مطلقا في حشد ما يكفي من القوى البشرية على حدود الستار الحديدي من أجل دفاع أمامي فعال ، دون اللجوء الفوري الى السلاح النووي التكتيكي الذي تؤجل هذه النظرية استخدامه الى اشعار آخر .

مما لا شك فيه أن الاستراتيجية الامامية الوحيدة التي تناسب المانيا الاتحادية هي التي نقترحها نحن في هذا الكتاب . ولكن المانيا الغربية ، التي ما زالت تحلم بالتوحيد ، لا يمكن أن توافق بسهولة على اقامة سد دفاعي محكم الاغلاق ، يكرس الانفصال بينها وبين المانيا الديمقراطية ...

وأما في انكلترا ، فان نفس أسباب الولايات المتحدة تدفعها لتأييد « الرد المرن » دون تحفظ ، رغم أن القنال البريطاني أضيق بكثير من الاطلسي .

بقيت فرنسا التي أعلنت وحدها عن تصميمها على اللجوء الى الذرة حفاظا على بقائها . لذلك بذلت جهدا رائعا ، خلافا لجميع حلفائها ، لكي تتزود بوسائطها الخاصة من الاسلحة النووية الاستراتيجية والتكتيكية كوسيلة أساسية للردع . كما بدأت مؤخرا في تأمين الوسائط اللازمة لدفاع نووي مماثل للنظام الذي نقترحه في هذا الكتاب . فقواتها البرية ، التي تضم حوالي ثلاثين لواءا أعيد تنظيمها ، تستطيع ، بعد تزويدها بعدد كاف من القنابل النيوترونية ، أن تدافع عن أرضها بسهولة ضد أي غزو بري ، مع الاحتفاظ بأسلحتها الاستراتيجية جاهزة للعبة التصعيد .

اذا بقي خلف شمال الاطلسي ، الذي تسيطر عليه امريكا سيطرة تامة ، يصر على رفض اقامة دفاع نووي مشترك متين على حدود الستار الحديدي ، فان باستطاعة فرنسا ، بوسائطها الخاصة أيضا ، أن تقيم مثل هذا الدفاع على حدودها . ولا شك في أنه سيكون لهذه الخطوة الرائدة وقعها السياسي في

الولايات المتحدة ، وبخاصة في الاوساط التي تؤيد هذا الاتجاه ، الامر الذي قد يؤدي الى تغيير الاستراتيجية الامريكية ووضعها في الطريق الصحيح .

أما بالنسبة لاوروبا الغربية ، التي تسعى نحو وحدة لا يمكن أن تتم عن طريق تبادل الخضار والفواكه ، فعساها تجد أخيرا في هذا الدفاع المشترك الحقيقي الدفع الذي ينقصها منذ أن عمد الاتحاد السوفييتي ، بمهارة فائقة ، الى وضع حد للضغط الذي مارسه سابقا .

٢ ـ ماذا عن نزع السلاح ؟

اذا كان باستطاعة نظامنا المقترح أن يؤمن انتصار الدفاع كما نعتقد ، فان باستطاعته وحده أن يسمح أخيرا ، وبشكل واقعي ، بمعالجة مسألة نزع السلاح التي ما زالت تتعثر حتى الآن رغم الجهود الكثيرة والمخلصة التي تبذلها مختلف الاطراف في هذا المجال .

لقد رأينا آنفا أفخاخ الاشراف على السلاح من طراز « سالت » وغيرها ، حيث يسعى كل طرف لنزع سلاح الآخر . لقد أصبح من المعروف أن نزع السلاح لا يمكن أن ينجح الا بشرط واحد : وهو شعور الامم المعنية بأنها لا تجازف بأمنها عندما تضحي بأسلحتها على مذبح المثالية .

منذ نشوء الخليقة ، ونزع السلاح مستمر : لأن الامم تعمد دائما الى التخلص من الاسلحة القديمة أو الزائدة . في اطار هذا المفهوم ، جاءت اتفاقيات « سالت » لتقضي بالتخلي عن الاسلحة الاستراتيجية الزائدة التي لا تقدم ولا تؤخر كثيرا في مقومات الردع عن طريق الارهاب ، علما بأن (١٠٫٠٠٠) رأس نووي تعتبر أكثر مما يلزم لتحويل مدن الخصم الى رماد .

لذلك كان من السهل الاعتراف بالتعادل في هذا السباق وايقاف هذه النفقات الباهظة من أجل تفوق مستحيل في مجال الاسلحة الاستراتيجية . وهكذا ظهرت الدولتان العملاقتان في نظر الرأي العام العالمي وكأنهما تضحيان بجزء من طاقتهما باسم المبادىء والقيم ، بينما كانتا تتخليان في الواقع عن شيء لم تعد له أية أهمية تذكر في ضمان الأمن .

قال المارشال « غريتشكو » في أحد تعليقاته : « لا تعتبر الوسائط الاستراتيجية المدمرة أسلحة حربية ، انها تعيش حياتها الخاصة في عالم مستقل. ولا شك في أن الرجل الذي يبلغ به الجنون حدا يجعله البادىء في الضغط على الازرار لم يخلق بعد » . لذلك يتساءل الكثيرون بحق لماذا يعمد الامريكيون الى أعلان انتحارهم بأيديهم ، أو لماذا يقوم الروس بمهاجمة الامريكيين في الوقت الذي يستطيعون فيه السيطرة عسكريا على القارة الاوروبية أو الاسيوية دون اطلاق أي صاروخ عبر الاطلسي ، الامر الذي لا بد أن يؤدي الى الرد الانتقامي الرهيب ...

وهكذا ، بعد أن تم ابطال أسلحة الارهاب عن طريق توازن كمي حدد سقفه ببضعة آلاف ، بقي أن يوجه الاهتمام الى الاسلحة الحربية التي يمكنها أن تستعيد حرية عملها يوما ما ، نتيجة ابطال الاسلحة الاستراتيجية نفسها .

من المعروف أن الاسلحة الحربية هي تلك التي تسمح بتجسيد النصر واعطاء اللجوء الى القوة مغزاه السياسي ، وهذا يعني ، غدا كالامس ، ايصال القوات فعلا الى مرحلة رفع علمها فوق العاصمة المعادية بغية السيطرة على الافراد والممتلكات وفرض الارادة . بدون هذا لا يكون للحرب أي معنى .

لذلك لا بد من الآن فصاعدا من ابطال القوات البرية ، الاداة الاساسية للهجوم ، وادخالها في فئة الاسلحة الزائدة أو عديمة الفائدة التي يمكن التخلص منها دون عقد أو مجازفات . ولا شك في أن الفرعين الاساسيين للقوات البرية هما المشاة والمدرعات من جهة والمدفعية من جهة ثانية : أي **الرجال** الراجلون أو الراكبون على الآليات أو الدبابات أو العربات المدرعة أو الطائرات أو الحوامات أو أية وسيلة أخرى للحركة من جهة ، ثم **النيران** (مدافع ، طائرات تكتيكية ، صواريخ ، قاذفات ، الخ ...) من جهة ثانية .

من المعروف أن المدفعية بكافة أشكالها ، القديمة منها والحديثة ، الكلاسيكية أو النووية ، لا تهدف الا الى مساعدة المشاة على احتلال الارض في الهجوم ، أو منع العدو من احتلال أرض الصديق في الدفاع .

صحيح أن بامكان المدفعية أن تقدم عونا فعالا لصالح الهجوم ، الا أنها

لا تستطيع وحدها احراز النصر . يستطيع الاتحاد السوفييتي دون أي شك تحويل أوروبا الى رماد ، ولكن ما هي الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها من ذلك ، مع كل ما سيترتب على مثل هذه العملية من انتحار مؤكد لمدنه ، اذا لم تستطع قواته البرية احتلال هذه الاراضي المدمرة ؟

أما في الدفاع ، فقد رأينا أن باستطاعة المدفعية وحدها تقريبا ، بعدد محدود من السدنة وتنظيم صحيح ، أن تؤمن دفاعا متينا جدا من الآن فصاعدا . بهذا تصبح المدفعية حجر الزاوية في الاجهزة العسكرية العاجزة تماما عن القيام بالعدوان البري ، مع بقائها فعالة جدا لمنع هذا العدوان . وهكذا فقدت المشاة والمدرعات ، ومعهما العملية الهجومية ، كل حماية وأصبحتا بمثابة « كعب أشيل » بالنسبة للقوات المسلحة . كما فقد عدد المقاتلين وشجاعتهم كل معنى ازاء السد النيوتروني بعد أن كانا أهم عاملين في التغلب على صلابة الدفـاع مهما بلغت .

بالنسبة للامم المخلصة حقا في اعلاناتها السلمية حول نزع السلاح ، أصبح بامكانها من الآن فصاعدا ، دون أية عقد أو مجازفات ، أن تخفض الى أدنى حد ممكن حجم مشاتها ودباباتها وطائراتها التكتيكية دون المس بقدرة المدفعية التي لا بد منها لنجاح المهمة الدفاعية . بهذا ، تبرهن هذه الدول عمليا على حسن نواياها السلمية دون التضحية بأمنها على مذبح المثاليات . لذلك يكفي التركيز على المدفعية والتضحية بالهجوم لصالح الدفاع لأن الاثنين لم يعودا يستخدمان نفس الادوات .

وهكذا فتحت الطريق أخيرا امام نزع السلاح الجدي عندما لم يعد الهجوم أفضل وسيلة للدفاع . من البدهي أنه كان مستحيلا حتى الآن التخلص من القدرة الهجومية عندما كانت الاسلحة كلها صالحة للهجوم والدفاع في آن واحد ، أي عندما كانت الدبابة مثلا هي أفضل سلاح مضاد للدبابات .

ان أول فكرة تخطر على البال فيما يتعلق بنزع السلاح هي الغاء الاسلحة الاكثر خطورة ، أي الاسلحة النووية بطبيعة الحال . منذ عام ١٩٦٠ ، وعد الرئيس « كينيدي » ببذل قصارى جهده « لالغاء الاسلحة النووية قبل أن تبيد

الجنس البشري » . بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، اقترح الرئيس « كارتر » « عمل كل ما من شأنه محو السلاح النووي من على سطح الكرة الارضية » . مثل هذا التفكير يؤثر في الرأي العام ويرغم السياسيين ، شاؤوا أم أبوا ، على الموافقة ولو كان بعضهم يرى الواقع المخالف خلف المظاهر الخداعة .

في هذا الصدد ، يعتبر تحول السيد « داڤيد ليلينتال » مثالا واضحا على ما نريد الوصول اليه . فقد كان « ليلينتال » هذا أول رئيس للجنة الطاقة الذرية الامريكية ، حيث قام ، بعد الحرب، بوضع خطط مفصلة لنزع السلاح النووي في الولايات المتحدة ، وهو نفسه الذي قام بعد تفكير ملي بالمطالبة عام ١٩٦٣ بعدم الغاء الاسلحة النووية قبل الغاء كافة اسباب الحروب . من المؤكد أن حذف هذا الحصن المتين للسلام ، الذي برهن على فعاليته خلال ثلاثين عاما ، يعيد البشرية الى نقطة البدء ويعيد للهجوم أولويته التاريخية ، أي للجوء الى القوة العسكرية كل مغزاه السياسي السابق . وهكذا ، عندما تعود الحرب « التقليدية » ممكنة من جديد ، لن يلبث العالم ، في زحمة النيران ، أن ينبش الاسلحة النووية من قبورها لتحصد الناس بالملايين وتؤدي الى الانتحار الرهيب.

لذلك قد يؤدي بنا شبح هيروشيما والرعب الذي يوحيه الى عكس الهدف المرجو . فالاسلوب الصحيح لنزع السلاح ، ليس كفاية قائمة بذاتها بل كوسيلة لتأمين السلام ، يجب الا يبدأ بالتضحية بالاسلحة الوحيدة القادرة على قتل الحرب ، وذلك على مذبح المثالية الجوفاء . بل على العكس ، لا بد من الحفاظ على هذه الاسلحة لتكون آخر ما يستغنى عنه عندما يبزغ على العالم فجر غد أفضل .

٣ - أفول شمس إله الحرب

لقد حاولنا فيما سبق أن نبين كيف يستطيع العلم والتقنية الحديثة للاسلحة ، مع مفهوم جديد لتكتيك الدفاع ، القاء الحرب التقليدية في سلة مهملات الكوابيس الماضية ، وكيف تستطيع الامم المتحضرة المسؤولة عن السلام في العالم أن تقيم ردعا ناجعا وقابلا للتصديق دون اللجوء الى المجازفة بالدمار الشامل الذي يستند عليه الآن السلام المبني على الرعب .

أما السد النيوتروني الذي نقترحه هنا ، فهو الحصن الحصين الذي يقيمه العلم في وجه الحرب عن طريق الارقام والتفكير المجرد السليم ، البعيد عن المزاودات والتكهنات والشعارات الضبابية الجوفاء . انه السلاح الحديث الوحيد القادر أخيرا على منع العدوان ، شريطة أن تكون طبيعته وطريقة استخدامه موجهتين كليا نحو انتصار الدفاع والردع والسلام . ونحن لا نجد حلا آخر طالما لم ينجح دعاة المثالية في محاولاتهم المتكررة لتحسين الطبيعة البشرية ... بانتظار هذه المعجزة ، نعتقد جازمين بأننا قد اقترحنا هنا ما من شأنه جعل الطبيعة البشرية هذه عاجزة عن الحاق الضرر والاذى بالآخرين ...

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ـ مقدمة المترجم	٣
ـ تمهيد	٧
ـ المقدمة	١١
الفصل الاول	
١ ـ محاكمة وقائية في بلاط « ريوم »	١٣
٢ ـ كيف أصبحت خبيرا نوويا ...	١٧
الفصل الثاني	
١ ـ تاريخ قنبلة النيوترون ، أصلها ، مشاكلها السياسية ، تأثيراتها	٢٤
(١) ـ الخرق التكنولوجي	٢٨
(٢) ـ الجولة الاولى (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣)	٣٢
(٣) ـ الصحافة تظهر على المسرح	٣٦
(٤) ـ النقاش الممل يستمر	٤٨
(٥) ـ نيكيتا خروتشوف يظهر على المسرح	٥٢
(٦) ـ عبور الصحراء	٥٦
(٧) ـ الجولة الثانية (١٩٧٧ ...؟)	٥٨
٢ ـ نبذة عن التقنية النووية	٦٦
ـ المغالطة الاخلاقية	٧٥
٣ ـ القنبلة والكنيسة ...	٧٧

الموضــــوع	الصفحة

الفصـل الثـالث

الدفــاع عن أوروبا ٧٩
١ ــ في الغرب ــ دفن « كلاوزويتز » ٧٩
ــ المظلــة النووية الامريكية ٧٩
ــ الفيوم الاولى ــ القمر الروسي « سبوتنك » ٨٢
ــ « الروليت الروسية » وحاملة الطائرات الشراعية ٨٧
ــ مغامرة اتفاقيات « سالت » ٩٦
٢ ــ لا جديد في الشرق ... استمرار الاستراتيجية السوفييتية ٩٩
ــ تطــور الوســائط ١٠١
ــ العقيــدة ١٠٥

الفصـل الرابـع

الحــل ــ أسوار المدينــة ١١١
١ ــ وصايا « سون تزو » ١١٣
٢ ــ اختلال التوازن في القوات البرية ١١٥
٣ ــ المفهــوم الجــديد ١١٧
٤ ــ عودة الذرة الى النسق الاول ١٢٠
٥ ــ انقاذ ألمانيا الغربية ١٢٣
٦ ــ خط ماجينــو ١٢٥
٧ ــ الســد الحــديث ٢١٨
٨ ــ دروس « ديان بيان فو » ١٣٢
٩ ــ حقل الالغــام المشعة ١٣٩
١٠ــ الاسلحة التقليدية ١٤٤
١١ــ الكلفة التقريبية للسد ١٤٧
١٢ــ اختيار الاسلحة النووية ١٤٩

الموضــــوع	الصفحة
١٣ـ نحديد الاهداف ـ والتكتيك النووي الدفاعي	١٥٣
١٤ـ بعض المسائل السياسية	١٥٨
١٥ـ الجناح الثالث للردع	١٦١

الفصــل الخامس

الخــاتمة	١٦٥
١ ـ السياسة والتكتيك	١٦٥
٢ ـ ماذا عن نزع السلاح ؟	١٦٩
٣ ـ أفول شمس إلـه الحرب	١٧٣

* * *

تكمن الخاصية الأساسية لقنبلة النيوترون في كون تأثيرات الضغط والحرارة محدودة، بينما نجد الاشعاع النيوتروني أكبر بكثير مما هو عليه في السلاح النووي الكلاسيكي.

لذلك لايمكن لأي درع معروف حالياً أن يوقف المد المميت للنيوترونات التي تبطل، خلال دقائق معدودات، الطواقم التي لم تعد صفائح الفولاذ بقادرة على حمايتها.

أما المدافعون، الملتجئون في الخنادق، فيتمتعون على العكس بحماية شبه تامة ضد التأثيرات النيوترونية. قد يبدو هذا غير قابل للتصديق، ولكن الملاجىء البسيطة الأرضية تحمي أكثر من الدرع. وهكذا يميز السلاح النيوتروني المدافع ويصعق المهاجم الذي يجازف بشن هجوم بري.

من هذا يمكن القول أن السكان المدنيين، الموجودين في المناطق القريبة من مسرح العمليات، يمكن أن يتمتعوا بالحماية التامة إذا وضعوا داخل الملاجىء. أضف إلى ذلك أن التأثيرات المحدودة للعوامل الحرورية والميكانيكية للانفجارات قد أصبحت قادرة من الآن فصاعداً على تجنيب الدولة المعرضة للهجوم الدمار المادي والبشري الذي كان ينجم عن استخدام القنابل النووية التكتيكية.